قصص السيرة النبوية

١ - ٦٠

محمد موفق سليمة

دار الهدى

دار الهدى للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الخامسة

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي - الملز - غرب إدارة مكافحة المخدرات
هاتف ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ ٤٧٧٦١٣٩ - ص. ب ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

قصص

السيرة النبوية

١

الحاجة إلى الحق

صاحِبُ الْخُلُقِ العَظيم

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ يا أَحِبّائي الصِّغارِ ، سَأَلْتَقي وإيّاكم في هٰذِهِ المَرَّةِ مَعَ سِلْسِلَةٍ قَصَصِيَّةٍ حُلْوَةٍ ، تَحْكي لَنا في صَفَحاتِها حَياةَ قائِدِنا الأَعْظَمِ الذي تَسْمَعُونَ اسْمَهُ خَمْسَ مَرّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَما يُؤَذِّنُ المؤَذِّنُ وَيَقُولُ: (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ اللهِ) .

وإذا طَلَبْتُ مِنْكُمْ أَنْ تَفْتَحُوا المُصْحَفَ الشَّريفَ عَلى سُورَةِ الْقَلَمِ، فَسَوْفَ تَقْرَؤُونَ فِيها آيَةً حُلْوَةً رائِعَةً يَقُولُ اللهُ تَعالى فِيها :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وَلَوْ سَأَلْتُكُمْ : مَنْ صاحِبُ الخُلُقِ العَظيمِ الذي تُخاطِبُهُ الآيَةُ ؟ فَسَتَذْكُرُونَ مَعي كَلِمَةَ المُؤَذِّنِ ، وَتُجيبُونَني مُبْتَسِمينَ : إِنَّهُ (رَسُولُ اللهِ مُحمدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

إِنَّها أَجْمَلُ سِيرَةٍ

وَسَأَشْكُرُ لَكُمْ جَوابَكُم الصَّحيحَ ، وَأَقُولُ لَكُمْ : أَحْسَنْتُمْ أَيُّها الأَحْبابُ المجتهِدُونَ ، وَلٰكِنْ هَلْ تَحْفَظُونَ شَيْئاً مِنْ سيرَةِ هٰذا الرَّسُولِ الكَريمِ ؟ لَعَلَّكُمْ تعرِفونَ قليلاً، وَأَنا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُحِبُّونَ قَصَصَ العُظَماءِ وَالأَبْطالِ ، ولا سِيَّما القَصَصُ الَّتي تكونُ صَحيحَةً وَصادِقَةً ، وَإِنَّ

التّاريخَ يا إِخْوَتي يَشْهَدُ لَكُمْ أَنَّ أَجْمَلَ سيرَةٍ ، وأَحْلى قِصَّةٍ، تَجِدُونَها في مَعْرِفَةِ أَخْلاقِ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ . وَمَعَ التّاريخِ حَقٌّ في ذٰلِكَ ، فَأَخْلاقُ رَسُولِنا مِنْ تَرْبِيَةِ رَبِّ العالَمينَ ، إِنَّ خُلُقَ الرَّسُولِ يا أَحِبّائي كانَ مَجْمُوعاً مِنْ أَخْلاقِ الْقُرْآنِ، والْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَهَلْ هُناكَ أعظَمُ وَأَغْلى مِنْ هٰذِهِ التَّرْبِيَةِ؟ إِذاً هَيّا بِنا إلى مَعْرِفَةِ أَجْمَلِ الْقَصَصِ ، فَكُلُّنا شَوْقٌ لِذٰلِكَ .

لِماذا نَدْرُسُ السّيرَةَ؟

وَإِذا ما اسْتَطَعْنا أَنْ نَفْهَمَ سيرَةَ رَسُولِنا ﷺ ، فَإِنَّنا نَكُونُ قَدِ ادَّخَرْنا المَعانِيَ الْعالِيَةَ، نَتَزَوَّدُ مِنْها في طُفُولَتِنا ، وَنَسْتَفيدُ مِنْ خَيرِها في شَبابِنا ، وَسَنُصْبِحُ نَماذِجَ صالِحَةً غَداً إِذا كَبِرْنا إِنْ شاءَ اللهُ بَيْنَ أَهْلِنا وَأَقارِبِنا وأَصْدِقائِنا ، نُعَلِّمُ الجَميعَ أَخْلاقَ حَبيبِنا مُحَمَّدٍ ، وَنَدُلُّهُمْ عَلى نَبْعٍ كَبيرٍ يَسْتَقُونَ مِنْهُ أَعْذَبَ الشَّرابِ ، وَنُبَيِّنُ لِكُلِّ النّاسِ أَنَّ دِراسَةَ سيرَةِ الرَّسُولِ العَظيمِ وَصاحِبِ الخُلُقِ العَظيمِ واجِبَةٌ عَلَيْهِمْ لِيَسْتَقيمَ عَمَلُهُمْ وَفِعْلُهُمْ ، بِصِدْقٍ وَوُضُوحٍ ، وَيَمْلَؤُوا قُلُوبَهُمْ قُوَّةً وَحَياةً ، وَإِنَّ لَنا في هٰذِهِ الدِّراسَةِ أَكْبَرَ قُدْوَةٍ في حَياتِنا إِذا أَرَدْنا سَعادَةَ الحَياةِ .. وَدُخُولَ الجَنَّةِ مَعَ المُؤْمِنينَ الصّالِحينَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَنَحْنُ نُحِبُّ دُخُولَها مَعَ مَنْ سَنَتَعَلَّمُ سيرَتَهُ .

بِلادُ الْعَرَبِ

وَقَبْلَ أَنْ نَمْضِيَ في القِصَّةِ يا أَحِبَّتي ، سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ البيئَةِ التي وُلِدَ فيها الرَّسولُ الكريمُ ، وَعَنِ الأَرْضِ الَّتي نَشَأَ فِيها وَعَنْ طَبيعَةِ الَّذينَ

عاشوا في تِلْكَ الأَرْضِ ...

لَقَدْ وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ في مَكَّةَ .. وَكَما تَعْلَمُونَ فَإِنَّ مَكَّةَ جُزْءٌ مِنَ الجزيرةِ العربيَّةِ ، تِلْكَ البِلادِ الّتي تَتَّسِعُ صَحْراوُها ، وَيَقِلُّ فِيها الماءُ ، وَيَنْدُرُ عَلى سَطْحِها النَّباتُ ، أَكْثَرُها صُخورٌ ورِمالٌ ، وَيَتَنَقَّلُ سُكّانُ قَبائِلِها تَحْتَ الْخِيامِ ، وَأَمّا المُدُنُ فِيها فَقَليلَةٌ وَنادِرَةٌ ، تَعْتَمِدُ عَلى تِجارَةِ الْقَوافِلِ بِاتِّجاهِ الشَّمالِ إِلى الشّامِ أَوِ الجَنُوبِ إِلى اليَمَنِ ، وَلَمْ تَكُنِ العَلاقَةُ بَيْنَ القَبائِلِ وَأَهْلِ المُدُنِ طَيِّبَةً كَما يَجِبُ ، وَلَعَلَّ أَشْهَرَ تِلْكَ المُدُنِ عَلى الإِطْلاقِ (مَكَّةُ) الَّتي وُلِدَ فيها الرَّسُولُ الكَريمُ مُحَمَّدٌ ﷺ بَطَلُ هٰذِهِ السِّيرَةِ وَصاحِبُ الخُلُقِ العَظيمِ .

البَيْتُ الحَرامُ كَعبَتُنا

وإِنَّ لِمَكَّةَ هٰذِهِ شُهْرَةً ، لَيْسَ في بِلادِ العَرَبِ وَحْدَها ، بَلْ في جَميعِ أَقْطارِ الأَرْضِ ، لأَنَّ فِيها الكَعْبَةَ بَيْتَ اللهِ الحرامِ ، وأَوَّلَ بَيْتٍ بَناهُ العِبادُ لِعِبادَةِ اللهِ رَبِّهِمْ ، وَهوَ أَوَّلُ بَيْتٍ أَيْضاً وُضِعَ لِلنّاسِ لِيَطُوفُوا بِهِ ، ويحجُّوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ في الأَرْضِ .

ثُمَّ إِنَّ هٰذا الْبَيْتَ هُوَ أَغْلى الأَماكِنِ عَلى اللهِ، لِذٰلِكَ جَعَلَهُ رَبُّنا قِبْلَةَ الصّالِحِينَ مِنْ عِبادِهِ ، فَالمُسْلِمُونَ الصّالحونَ يَتَّجِهونَ إِلَيْهِ في صَلاتِهِمْ مَهْما تَباعَدَتْ بِلادُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ أَقْطارُهُمْ .

مِنْ أَجْلِ هٰذا فَالْبَيْتُ الْحَرامُ مَحْبُوبٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، يُعَظِّمُونَهُ

ويُقَدِّسُونَهُ، وَقَدْ عاشُوا إِلى جِوارِهِ آمنينَ مُطْمَئِنِّينَ ، وَمِنْ أَجْلِ هٰذا الأَمانِ وَالاطْمِئْنانِ كانَ الآخَرونَ يَعْمَلُونَ عَلى تَحْسِينِ عَلاقاتِهِمْ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مُتَقَرِّبِينَ مِنْهُمْ خِلافاً لِلْفُرْقَةِ .

دَعْوَةُ إِبْراهِيمَ

وَلِسَيِّدِنا إِبْراهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فَضْلٌ كَبيرٌ في بِناءِ هٰذا الْبَيْتِ الطّاهِرِ وَإِعْمارِهِ ، فَقَدْ أَوْحى اللهُ لَهُ أَنْ يَقُومَ بِهٰذا الْعَمَلِ الْجَليلِ مَعَ ابْنِهِ إِسْماعيلَ . وَحِينَ تَمَّ البِناءُ بِنَجاحٍ وَإِخْلاصٍ ، تَوَجَّهَ إِبْراهِيمُ وإِسْماعِيلُ إِلى اللهِ يَرْجُوانِ التَّوْبَةَ لِذُرِّيَّتِهِما، ثُمَّ قالا : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

وَمِنْ وَقْتِ ذٰلِكَ الدُّعاءِ الْكَريمِ ، بَدَأَتِ الاسْتِجابَةُ تَأْخُذُ دَوْرَها .. في الذُّرِّيَّةِ وَالأَبْناءِ ، فَقَدْ بارَكَ اللهُ في ذُرِّيَّةِ إِسْماعِيلَ ، فَأَخَذَتْ تَتَناسَلُ في هٰذِهِ البُقْعَةِ المُبارَكَةِ ، وَتَتَوالَدُ فِيها جيلاً بَعْدَ جيلٍ حتّى وُلِدَ مِنْها مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ أَبْرَزُ مَوْلُودٍ وَأَعْظَمُ فردٍ فِيها ، بل وفي البشريّةِ جمعاءَ .

خِدْمَةُ الحَجيجِ

وَمِنْ وَقْتِها كانَ النّاسُ يَحُجُّونَ كُلَّ عامٍ إِلى هٰذا البَيْتِ صِغاراً وَكِباراً، يَنْسَوْنَ عَداواتِهِمْ بِالقُرْبِ مِنْهُ ، وَيُطَهِّرُونَ أَجْسادَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ ، فَصارَ هٰذا الْبَيْتُ مَهْوى الْقُلُوبِ وَقِبْلَةَ الْعَرَبِ ، وتَسابَقَ النّاسُ إِلى السُّكْنى

حَوْلَهُ وَمُجاوَرَتِهِ ، وَكانَتْ خِدْمَةُ الحجّاجِ هيَ خدْمَةٌ لِلبَيْتِ ، وَالَّذي يَنالُ هٰذا الْعَمَلَ لَهُ شَرَفٌ عَظيمٌ ، لِذٰلِكَ تَنافَسَتْ قَبائِلُ مَكَّةَ في الوُصُولِ لِخِدْمَةِ هٰذا البَيْتِ ، وَتَوَصَّلَتْ قُرَيْشٌ إِلىٰ هٰذِهِ المَكانَةِ بَعْدَ أَمَدٍ طَويلٍ ، وَكانَ أَوَّلُ مَنْ تَوَلّىٰ ذلِكَ مِنْ هٰذِهِ الْقَبيلَةِ رَجُلٌ اسْمُهُ (قُصَيٌّ)، وَهُوَ أَحَدُ أَجْدادِ النَّبيِّ الكَريمِ ، وَقَدِ امتازَ هٰذا الجَدُّ بِخُلُقِهِ وعقلِهِ وَمرُوءَتِهِ، وَقَدْ سَنَّ عادَةَ إِكْرامِ الحجّاجِ عَلى حِسابِ قُرَيْشٍ ، وَارْتَقَى بِذٰلِكَ إِلى أَعْلى مَراتِبِ الشَّرَفِ والرِّئاسَةِ .

تَعَدُّدُ الدِّياناتِ

وَلَقَدْ كانَتْ حالَةُ النّاسِ قَبْلَ رِسالَةِ الرَّسُولِ فِي مُنْتَهى الْفَسادِ فَالعالَمُ في ظُلُماتٍ مِنَ الدِّياناتِ الْمُشَوَّهَةِ الْكافِرَةِ ، فَهُناكَ البُوذِيُّونَ الَّذينَ يَعْبُدُونَ رَجُلاًيُدْعى (بُوذا) ، وإِلى جانِبِهِمْ عاشَ عَبَدَةُ البَقَرِ وَعَبَدَةُ النّارِ، وَكانَتْ هُناكَ أُمَمٌ تَعْبُدُ الملائكةَ و الجِنَّ ، وأُمَمٌ تَعْبُدُ الصّوَر والتَّماثيلَ ، وأُمَمٌ تَعْبُدُ أَرْواحَ المَوْتىٰ وَآثارَهُمْ .

بالإضافَةِ إِلى نَوْعٍ مِنَ النّاسِ عَبَدَ بَعْضَ المَخْلُوقاتِ الكونِيّةِ كالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالأَنْهارِ والأَشْجارِ ، وَتَبِعَهُمُ اليَهُودُ في التَّحْريفِ والضَّلالِ ، فَقالُوا عَنْ (عُزَيْرٍ) الصّالِحِ : إِنَّهُ ابْنُ اللهِ ، وَسَرَتِ الْعَدْوى إِلىٰ النَّصارى فَزَعَمُوا أَنَّ المَسيحَ ابْنٌ للهِ ، وَشاعَتِ الْفَوْضى وَالخِلافاتُ ، و تَعَدَّدَتِ الآراءُ في كُلِّ دِينٍ وَمَذْهَبٍ ، وَعَمَّ الْفَسادُ والْجَهْلُ والضَّلالُ.

حَمْلَةُ الْفيلِ

وَحاوَلَتْ كُلُّ فِئَةٍ أَنْ تَدْعُوَ لِديانَتِها وَمَذْهَبِها مِنْ دُونِ الدّياناتِ والعقائِدِ الأُخْرى، وَحاوَلَتْ بَعْضُها أَنْ تَصُدَّ غَيْرَها عَنْ مُعْتَقَدِها وَدِينِها كَما فَعَلَ أَبْرَهَةُ الحبَشيُّ حينَما أَرادَ أَنْ يَنْتَهِيَ العَرَبُ عَنْ عِبادَتِهِمْ وَحَجِّهِم إِلى البَيْتِ الحَرامِ ، وَيَتَوَجَّهوا في حجِّهم إِلى (القُلَّيْسِ) ، ذٰلِكَ البِناءِ الذي بَناهُ في الْيَمَنِ ، وَلَمّا امْتَنَعَ الجميعُ عَنِ الإِصْغاءِ لأَمْرِهِ ، جَهَّزَ حَمْلَتَهُ الشَّهيرَةَ بِحَمْلَةِ الفيلِ ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَيْتِ الْحَرامِ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ .

وَهُناكَ قَربَ البَيْتِ ، هَرَبَ أَهْلُ مَكَّةَ باكِيِنَ لا حَوْلَ لَهُمْ وَلا قُوَّةَ ، عِنْدَها أَرْسَلَ اللهُ الطَّيرَ الأَبابيلَ ، لِتَرْمِيَ جَيْشَ أَبْرَهَةَ وَفِيلَهُ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجّيلٍ ، فَتحرِقَهُمْ ، وَتُوقِعَ بِهِمُ الْهَزيمَةَ ، وَعَرَفَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّ اللهَ يُريدُ الْخَيْرَ لِبِلادِهِمْ ، وَلَعَلَّها مُهَيَّأَةٌ لأَمرٍ جَليلٍ في الْمُسْتَقْبَلِ القَريبِ.

العاداتُ السَّيِّئَةُ

..ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنَ الأَمْرِ عِبْرَةً وَدَرْساً ، وَالْجَديرُ بالإِنسانِ أَنْ يَعْرِفَ واجِبَهُ مِنَ الشُّكْرِ والحَمْدِ أَمامَ الحِمايَةِ الرَّبانيَّةِ ، وَهٰذا ما لَمْ يَقُمْ بِهِ الْعَرَبُ أَبداً في ذٰلِكَ الحِينِ بَعْدَ حادِثَةِ أَبْرَهَةَ ، لَقَدْ كانوا قَبْلَها كَما بَقُوا بَعْدَها أَسْوأَ النّاسِ حالاً ، وَأَشَدَّهُمْ إِمْعاناً في الجهالَةِ والضَّلالِ .

فَقَدْ بالَغُوا في الظُّلْمِ وَالخُرافاتِ ، فَها هُمْ أولاءِ يُشْرِكُونَ باللهِ آلِهَةً مِنْ حَجَرٍ ، وَتَمْرٍ، وَشَجَرٍ ، وَبَشَرٍ ، وَمَلائِكَةٍ ، وَجِنٍّ ، وَبِذٰلِكَ شَوَّهُوا إِيمانَهُمْ

بِاللهِ إِذْ عَبَدُوا آلِهَةً أُخرى غَيْرَهُ يَعْتَقِدونَ أَنَّها تَشْفي مَرْضاهُمْ ، وَتَمْنَحُهُم الذُّرِّيَّةَ ، وَتُمْطِرُهُم الْغَيْثَ ، وَلَمْ يَكْتَفُوا عِنْدَ هٰذا ، بَلْ جَعَلُوا المَلائِكَةَ بَناتِ لله ، وأَهْمَلُوا المَرْأَةَ في مُجْتَمَعِهِم ، وَقامَ بَعْضُهُمْ بِوَأْدِ بَناتِهِ تَحْتَ التُّرابِ وَهُنَّ أَحْياءٌ ، وَفَعَلَ بَعْضُهُم المُنكرَ كَشُرْبِ الخَمْرِ ، واللَّعِبِ بِالقِمارِ، وَالخِصامِ الدّائِمِ مَعَ الآخرينَ .

أَصْنامُ الْعَرَبِ

وَمَعَ أَنَّهُمْ يُقَدِّسُونَ الْبَيْتَ الحرامَ ، وَيُعَظِّمونَ الكَعْبَةَ المُشَرَّفَةَ ، إلا أَنَّهُم مَلَؤُوها بِسِتِّينَ وَثَلاثِمِائَةِ صَنَمٍ مِنْ حَوْلها، لِكُلِّ قَبِيلَةٍ صَنَمُها الخاصُّ ، وَلِكُلِّ بَيْتٍ صَنَمٌ خاصٌّ بِأَهْلِهِ ، بَعْدَ أَنْ كانَ الْبَيْتُ رَمْزاً للتَّوْحِيدِ وَعِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ مُنذُ أمرَ اللهُ مَنِ اختصهمْ ببنائِهِ .

وَزادَ تَعَلُّقُهُمْ بالأَصْنامِ .. فَالرَّجُلُ مِنْهُمْ إذا سافَرَ حَمَلَ مَعَهُ صَنَماً صَغيراً للتبرُّكِ بِهِ، وَمَنْ أَرادَ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ قَدَّمَ ذَبيحَتَهُ أَوْ أَعْطى قِسْماً مِنْ مَزْرُوعاتِهِ لِهٰذِهِ الأَصْنامِ ، وَتَرَسَّخَتْ هٰذِهِ الأَفْكارُ والاعتقاداتُ في ذِهْنِهِمْ وَأَذْهانِ ذُرِّيَّتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فالابْنُ يُقَلِّدُ أَباهُ وَجَدَّهُ ، وَيَهْجُرُ عَقْلَهُ وَفِكْرَهُ ، والكِبارُ لَمْ يَتعوَّدوا أَنْ يَروا مِنْ أَبْنائِهِمْ سِوى السَّمْعِ والطّاعَةِ واتِّباعِهِمْ في العِبادَةِ والتَّقْديسِ .. والتَّقَرُّبِ مِنَ الأَصْنامِ ، والجميعُ يسأَلُونَها العافِيَةَ والعَوْنَ و إبعادَ الشَّرّ وجَلْبَ الخَيْرِ وَالمَنْفَعَةِ .

فِكْرَةُ التَّوْحِيدِ

وَهٰذا الجَهْلُ يا أَحِبَّتي ، إِنَّهُ واللهِ لَكَبِيرٌ وَعَظِيمٌ، أَفسَدَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَزَلْزَلَ عَقِيدَتَهُم الأُولىٰ وَجَعَلَ عَلى أَعْيُنِهِمْ غِشاوَةً وفي آذانِهِم حاجِزاً عَنِ الاسْتِماعِ إلى الحقِّ، وَكُلُّ ما عَرَفْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِهِمْ قَدْ جَعَلَ بَعْضَهُمْ مِنَ العُقَلاءِ في أَمْرِ الدِّياناتِ يَتَساءَلُونَ : أَهٰذا هُوَ الدّينُ الصَّحيحُ أَمْ ذاكَ؟ أَيْنَ الحَياةُ السَّعيدَةُ اللائِقَةُ بالإِنْسانِ؟ هَلْ هٰذِهِ الأَصْنامُ تَمْلِكُ حَقّاً النَّفْعَ والضُّرَّ للإنْسانِ؟ إِلى مَتى يَعيشُ هٰذا المَخْلوقُ في ظُلْمِهِ وخُرافاتِهِ ؟ إِلى مَتى سَيَبْقى في هٰذا الجَهْلِ ؟ وَكَيْفَ سَيَتَخَلَّصُ مِنَ الإِشْراكِ الْواضِحِ الجَلِيِّ؟ وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلى السَّماءِ قائِلينَ : أَيْنَ الصَّوابُ يا ربَّنا؟ أَيْنَ نَرىٰ نُورَ التَّوْحِيدِ ؟ أَفي دِينِ النَّصارىٰ أَمِ اليَهُودِ ؟ أَمْ أَنَّنا سَنَبْقى في حَيْرَةٍ مِنَ الأَمْرِ لا نَعْرِفُ أَيْنَ الحَقُّ وَأَيْنَ الصَّوابُ؟

مَنْ سَيَحْمِلُها؟

وَبَرَزَ إِلى البَحْثِ عَنِ الجوابِ أَصْحابُ العقولِ الواعِيَةِ الذينَ أَزْعَجَهُمْ حالُ قَوْمِهِمْ ، فَجَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَتَلَمَّسُ مَخْرَجاً صَحيحاً ، فَيَعُودُ بِذِهْنِهِ إلى القَديمِ .. إلى مِلَّةِ سَيِّدِنا إبراهيمَ ودينِهِ الحَقِّ .. وَمِنْ هٰؤُلاءِ كانَ (وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ) الذي اتَّبَعَ النَّصْرانِيَّةَ بَعْدَ البَحْثِ والاسْتِفْسارِ، وَ(عُثْمانُ بْنُ الحُوَيْرِثِ) الذي فارَقَ دِينَ قَوْمِهِ واعْتَزَلَ الأَصْنامَ وَالذَّبائِحَ ، وَنَهى عَنْ قَتْلِ البَناتِ الصَّغيراتِ .. وَكَذٰلِكَ زيد

ابن عمرو الذي شارك في النّصحِ لقومِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ تَشَعّبَتِ الآراءُ وتَنوَّعتِ الأَفْكارُ في مُحارَبَةِ الْجَهْلِ والفَسادِ ، ولكنْ هَلْ يَصْلُحُ أَمْثالُ هؤلاءِ لفتحِ بابِ الهدايةِ أمامَ الجميعِ ؟ مَنِ القادِرُ عَلى حَمْلِ مسؤوليّةِ إنْقاذِ القومِ والبشَريّةَ ؟ أَما آنَ الأوانُ يارَبِّ حَتى تَأْذَنَ بِإرْسالِ مُعَلِّمٍ كَبيرٍ يُمْسكُ بيدِ الضّالّينَ والْجاهِلينَ؟ ويكونُ رَحْمَةً للعالَمينَ مِنْك يارَبَّ العالَمينَ؟

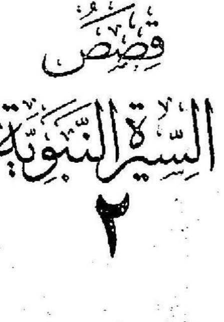
رَحْمَةٌ لِلْعالَمينَ كافّةً

وَازْدادَ التَّعَطُّشُ إلى رَسُولٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُنْقِذُ النّاسَ مِنْ مَأْزِقِهِمْ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ، وَيَهْديهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ .

وَقَد كَانَ هٰذا الرَّسُولُ هُوَ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ وأشرفُ التَّسْليمِ . . إنّهُ هوَ المُرْسَلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَحْمَةً للْعالَمينَ ، وَهُوَ مُنْقِذُ البَشريَّةِ مِنَ الظُّلُماتِ وَمُخْرِجُها إلى النُّورِ . . لَقَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ حَقّاً نُوراً لِلْهِدايَةِ وَمِصْباحاً للكَوْنِ المُؤْمِنِ المُسْلِمِ .

أَفَلَيْسَ جَديراً بِنا إذاً أَنْ نَعْرِفَ الكثيرَ عَنْ حامِلِ هٰذا النُّورِ ، وَرافِعِ رايَةِ التَّوْحيدِ؟ . .

بَلى . . هٰذا هُوَ الجوابُ الصَّحيحُ . . فَلْنُتابعْ مَعاً قِراءةَ السِّيرةِ الطّاهِرَةِ لِمَعْرِفَةِ سِيرَةِ صاحِبِ الخُلُقِ العَظيمِ .



الفِداءُ العَجيب

قصّةٌ عجيبةٌ !!

لا تعجبوا إذا قلتُ لكم: إنَّ والدَ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ قدْ تعرَّضَ للموتِ أكثرَ منْ مرّةٍ (عِندما كانَ صغيراً، وبعدَ أنْ أصبحَ رجلاً شاباً) فقدْ كانتْ إرادةُ اللهِ أنْ يعيشَ هذا الأبُ حتّى تتمَّ الفرحةُ بميلادِ محمّدٍ منقذِ الإنسانيّةِ. وسأحكي لكُمْ قصّةَ والدِ رسولِنا الكريمِ حتّى يزولَ العجبُ الّذي استقبلَكُمْ في بدايةِ هذهِ الحلقةِ، وأطلبُ منكُمْ قبلَ ذلكَ أنْ تحفظوا معي العباراتِ الثّلاثَ الآتيةَ:

أوّلاً: يجبُ علَيْنا أنْ نُصلِّيَ ونُسلِّمَ بألسنتِنا على محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ كُلّما مرَّ معَنا ذكرُهُ، (حتى ولو لم أكتبْ ذلك).

ثانياً: إنَّ والدَ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ هوَ عبدُاللهِ بنُ عبدِالمطّلبِ، ووالدتُهُ هيَ آمنةُ بنتُ وهبٍ.

ثالثاً: لا فائدةَ منَ القراءةِ دونَ إمعانٍ وفهمٍ، فعلَيْنا بالهُدوءِ في قراءتنا للسّيرةِ الكريمةِ.

أُسْرةٌ عريقةٌ

والآنَ تعالَوا لِنَعرفَ أُسرةَ عبدِاللهِ صاحبِ القصّةِ العجيبةِ.

كانتِ الأُسرةُ كريمةً وعريقةً جداً، ابتدأتْ بسيّدِنا إبراهيمَ عليهِ

السّلامُ، وامتدّتْ بسيّدِنا إسماعيلَ وذرّيّتِه مِنْ بعْدِهِ، وحوتِ الكثيرَ مِنَ الصّالحين. ولقدِ استطاعتْ هذهِ الأُسرةُ بجدارةٍ أنْ تستلِمَ منْصِبَ الشّرفِ والرّئاسةِ في مكّةَ ردْحاً مِنَ الزّمنِ، ووصلَتْ إلى قمّةِ مآربِها وغاياتِها في القيادةِ زمنَ (قُصَيٍّ)، فكانَتْ لهُ الطّاعةُ ومفاتيحُ البيْتِ الحرامِ، وسِقايةُ زمزمَ، وطعامُ حجّاجِ مكّةَ، والاجتماعُ للمشُورةِ والرّأيِ في دارِ النّدْوةِ، وحملُ اللّواءِ وقْتَ الحروبِ. كُلُّ هذا قدْ أخذَتْهُ الأُسْرةُ العريقةُ على عاتِقِها وحمَلَتْهُ كأحْسَنِ ما تُحملُ الأمانةُ والعُهودُ، فنالوا بذلكَ الشُّهْرةَ الحقيقيّةَ.. والصّدارةَ المُستحقّةَ.

دعْوةُ عبدِ المطّلبِ

وعَنْ طريقِ الوراثةِ وصلَتِ السّيادةُ إلى عبدِ المطّلبِ، جدِّ رسولِ اللهِ ﷺ، ولمّا كانتْ أعْيُنُ اليثْرِبيّاتِ والقبائلِ تتطلّعُ بعيْنِ الحسدِ إلى ما وصلَتْ إليهِ الأُسْرةُ العريقةُ، رأى عبدُ المطّلبِ أنَّ حالتَهُ مِنَ الضّعْفِ وقِلّةِ الأبْناءِ ستكونُ حجرَ عثْرةٍ في استمرارِ سيادتِهِ، لا سيّما عندما زادَ أوْلادُ الآخرين وكثُرَتْ ذرّيّتُهُمْ، بيْنما هُوَ لا يمْلِكُ إلا ولَداً واحِداً يُسمّى (الحارِث). ورفعَ يدَهُ إلى السّماءِ وعيناهُ تدْمعانِ حُزْناً، ودعا اللهَ أنْ يهبَ لَهُ عشرةً مِنَ الأوْلادِ، يمْنعُونَ عنْهُ وصُولَ الشّرِّ، ثُمّ نذرَ للهِ أنْ يذْبحَ واحِداً مِنَ الأوْلادِ إنْ هُمْ بلَغوا العشرةَ (ونذرُهُ محرّمٌ) ومِنْ هُنا يبْدأُ العجبُ؟!! لماذا سيذْبحُ واحِداً مِنهُمْ؟ وهَلْ سيفْعلُ ذلكَ ويفي بنذْرِهِ

العَجيبِ؟ الجوابُ نقرؤهُ معاً على صَفَحاتٍ قادمةٍ ..

تَحْقيقُ الأُمْنِيةِ

لَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَتَحَقَّقَتْ أُمنيتُهُ الغاليةُ . فَهاهُمْ أُولاءِ أَوْلادُهُ يَبْلُغُونَ العشَرَةَ مِنَ الرِّجالِ ، وَأَيْقَنَ عَبْدُ المطَّلِبِ هٰذا السَّيِّدُ المُحتَرَمُ أَنَّهُ قَدْ جاءَ وَقْتُ الوَفاءِ بِالنَّذْرِ ما دامَ اللهُ قَدْ أَجابَ دُعاءَهُ وَحَقَّقَ لَهُ رَجاءَهُ ، وَها هُو ذا يَجْمَعُ أَوْلادَهُ مِنْ حَوْلِهِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ :

يا أَوْلادي : لَقَدْ أَتَيْتُمْ إلى الدُّنيا ، وَقَرَّتْ عَيْني بِكُمْ ، وَإِنِّي قَبْلَ مجيئِكُمْ وَاكْتِمالِكُمْ، قَدْ تمَنَّيْتُ على اللهِ إنْ آتانيَ عَشرَةَ أَوْلادٍ يَشُدُّونَ ساعِدي بِرجُولَتِهِمْ ، أَنْ أَذْبَحَ لَهُ واحِداً مِنهُمْ شُكْراً لَهُ عَلى ما أَنْعَمَ عَلَيَّ وَرَزَقَني مِنْ فَضْلِهِ ، وَها أَنتمْ أُولاءِ عَشَرَةٌ مِنْ أَبنائي ، تحيطونَني عن يَميني وشِمالي ، وَتَمْلَؤُونَ نَفْسي فَخْراً، فَهل لي أَنْ أَفِيَ بِالنَّذْرِ للهِ .. أَمْ ماذا تَرَوْنَ؟!.

إلى القُرْعَةِ

وَما أَنْ سَمِعَ الأَوْلادُ كَلامَ أَبيهِمْ حَتّى أَجابُوهُ بِكُلِّ عَيْنٍ راضِيةٍ : كَما تَرى يا والدَنا.. إنَّنا تَحْتَ أَمرِكَ.. وَقَدَّمَ كُلُّ واحِدٍ منْهُمْ نَفْسَهُ لِيكونَ (هُوَ الذَّبيحَ المنذورَ)، وَاغْتَبَطَ عَبْدُ المطَّلِبِ، وَفَرِحَ لموقِفِ أَبْنائِهِ حينَ رَآهُمْ يُقدِّمونَ أَنْفُسَهُمْ لإِرْضائِهِ ، لٰكنَّهُ قَدِ احْتارَ في هٰذا الأَمْرِ العظِيمِ.. الذي لَيْسَ فيه مَزْحٌ ولا هُزءٌ، وَيَتَعَلَّقُ بِذَبْحِ وَلَدٍ مِنْ أَوْلادِهِ ، بَعْدَ أَنْ

كَبِرُوا تحتَ عَيْنَيْهِ وَفي رِعايَتِهِ! وَفكَّرَ الأَبُ وهو سَيِّدُ قُرَيشٍ ، وَحَسَبَ عَواقِبَ الإِقْدامِ عَلى الأَمرِ والإِحْجامِ عَنْهُ ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ لا يَتراجَعَ ، وَها هُوذا يَصْحَبُ أَوْلادَهُ العَشَرَةَ إلى مَكانِ القُرْعَةِ في البيتِ الحَرامِ .. لِيُجريَ قُرْعَةَ الأقداحِ المعْتادِ عَلَيْها عند الجاهليِّين ، وَهُناكَ سَيَظْهَرُ صاحِبُ الفِداءِ (أَي الوَلَدُ الذي سَيُذْبَحُ دُونَ إِخوتِه الباقين) .

عَبْدُ اللهِ

هٰكَذا كانَتْ عادَةُ العربِ .. كُلَّما هَمُّوا بِأَمْرٍ عَظيمٍ لجَؤوا إلى الأَقداحِ ، لمعرفةِ ما يُقْدِمُون عليه، وَكانَ لِهٰذِهِ الأَقْداحِ أَثَرٌ كبيرٌ في نفوسِ أَهلِ الجاهليَّةِ آنذاك ، وإيمانُهُمْ بِها شَديدٌ، فهي في اعتقادِهِمْ رَغْبَةُ آلهتِهِمْ .

وَوَصَلَ الجميعُ إلى الكَعْبَةِ ، وَكَتَبَ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَسْماءَ البنينَ العَشَرةِ على الأَقداحِ، ثُمَّ ضُرِبَتِ القِداحُ قِدْحاً قِدْحاً ، فَخَرَجَ قَدَحُ الابْنِ الأَصغرِ عَبْدِ اللهِ!! .

نَعَمْ.. عَبْدُ اللهِ، الصَّغيرُ آنذاكَ ، بَلْ أَصْغَرُ إخْوَتِهِ وأَحبُّهُم إلى عبدِالمطَّلِبِ ، وإلى أَهْلِ مَكَّةَ عامَّةً ، لخُلُقِهِ الهادِئِ وَحَديثِهِ العَذْبِ وَبَشاشَةِ وَجْهِهِ واتِّزانِ عَقْلِهِ ، إلى جانِبِ عِفَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَشَبابِهِ الرَّصين، مِنْ أَجْلِ هٰذا كانَ لِنَتيجَةِ القُرْعَةِ خَطَرٌ وَصَدىً عظيمٌ أَثارَ أَهْلَ مَكَّةَ جميعاً، وتَقَدَّمَ الجميعُ راجينَ عَبْدَالمطَّلِبِ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ ذَبْحِ عبدِ اللهِ.. وَياهَوْلَ الصَّدْمَةِ !!.

سُنَّةٌ سَيِّئَةٌ

لَقَدْ أبى عَبْدُ المطَّلِبِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِرَجائِهِمْ ، وَأَصَرَّ على أَنْ يَفِيَ بِالنَّذْرِ عَلى الوَلَدِ الذي اخْتارَتْهُ الأقداحُ ، وَتَقَدَّمَ مِن ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ أَحَبِّ أَبْنائِهِ إليهِ لِيَقُودَهُ إلى المذْبَحِ ، وَبِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ اقْتَرَبَ الابْنُ المحْبُوبُ دُونَ تَرَدُّدٍ ، فَبَكَتِ النِّساءُ وَصَرَخْنَ ، فَأَثَرْنَ النُّفُوسَ ، وَصاحَ كِبارُ قُرَيْشٍ قائلِينَ :

يا سيِّدَ قُرَيْشٍ .. يا عبد المطَّلِبِ .. أَتُريدُ أَنْ تُعَوِّدَنا على عادَةٍ بَشِعَةٍ وَسُنَّةٍ سيِّئَةٍ ؟ إنَّ ما يَفْعَلُهُ السَّيِّدُ فِينا اليَوْمَ ، سَوْفَ يُقَلِّدُه رجالُ القومِ فيه غداً ، فباللهِ عَلَيْكَ أَيُّها السَّيِّدُ الوقورُ ، اعْدِلْ عَنْ رَأْيِكَ ، وَإِنْ كُنْتَ وَلا بُدَّ فاعِلاً ، فَلا تَفِ بِنَذْرِكَ حَتّى تَسْتَشِيرَ عَرّافَةَ يَثْرِبَ ، فهِيَ الحَكَمُ في أَمْرِكَ ، وَسَنَعْرِفُ مَاذا تحكمُ ، وَعِنْدَها يَتَقَرَّرُ مصيرُ عَبْدِاللهِ على يَدَيْكَ !! .

إلى العَرّافَةِ !!

وَرَقَّ قَلْبُ السَّيِّدِ المُطاعِ ، وَلانَ فُؤادُهُ أمامَ صُراخِ النِّساءِ وَاسْتِغاثاتِ الشُّيوخِ ، وَاقْتَنَعَ بِما قالوهُ لَهُ مِنْ نَصيحةٍ خَفيفةٍ فِيها نَفْعٌ لَهُ وَلَهُمْ ... وَأَقَرَّ أَنَّهُ في عَمَلِهِ سَيَكونُ قُدْوةً لِمَنْ خَلْفَهُ مِنَ الرِّجالِ في القومِ ، لِذلكَ وافَقَ على الذَّهابِ بَعْدَ أَنْ أَرْجَأَ ذَبْحَ عَبْدِ اللهِ حَتّى تحكُمَ العرّافَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رِجالِ قَوْمِهِ ، وَرَكِبَ الجميعُ رَواحِلَهُمْ مُسْرِعِينَ نَحْوَ يَثْرِبَ

وكُلُّهُمْ شَوْقٌ لِمَعْرِفَةِ رَأْيِ العرّافَةِ .

وَما هِيَ إلا أَيّامٌ قلائلُ .. حَتّى كانَتِ الطَّريقُ قَدْ طُوِيَتْ لَهُمْ ، وَوَصَلُوا سالمِينَ إلى يَثْربَ ، وَدَخَلُوا مِنْ فَوْرِهِمْ عَلى العرّافَةِ ، يَعْرِضُونَ عَلَيْها أَمْرَهُمْ، وَيَرْجُونَ مِنْها إعْطاءَ حَلٍّ مَقْبُولٍ للجَميعِ وَمُنْقِذٍ لِعَبْدِ اللهِ مِنَ الذَّبْحِ .

الحُكْمُ المقْبُولُ

وَبَعْدَ أَن اسْتَمَعَتْ صاحِبَتُهُمْ إلى القَضِيَّةِ قالَتْ لَهُمْ : أُريدُ مُهْلَةَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ أَنْظُرُ في الأَمْرِ ، وَأَعْرِفُ فيهِ الصَّوابَ .

وَبَعْدَ فَواتِ الأَيّامِ الثَّلاثَةِ أَعادُوا عَلَيْها السُّؤالَ بِشَغَفٍ زائِدٍ لِمَعْرِفَةِ الجوابِ ، فَقالَتْ لَهُمْ : كَمْ تَدْفَعُونَ بَدَلَ القتيلِ فيكُمْ ؟ قالُوا : عَشْراً مِنَ الإبلِ ، قالَتْ : (إذاً .. فَقَدِّمُوا عَشراً مِنْها إلى الآلِهَةِ ، وانْظُرُوا الأقداحَ ، فَإِنْ خَرَجَتِ الأقداحُ على الإبِلِ فَاذْبَحُوها ، وَإِنْ خَرَجَتْ عَلى عَبْدِاللهِ فَزِيدُوا الإبلَ عَشْراً ، وَهٰكَذا لا تَزالُونَ تَزيدُونَها عَشراً بَعْدَ عشرٍ حتّى تَقَعَ الأَقداحُ عَلى الإبِلِ ، عِنْدَها تَكُونُ الآلِهَةُ قَدْ رَضِيَتْ بالإبِلِ بَدَلاً عَنْ عَبْدِ اللهِ) . هٰذا هُوَ رَأْيِي وَحُكْمِي . وَشَكَرَ الجميعُ هٰذِهِ العَرّافَةَ ، وَأَقَرُّوها عَلى حُكْمِها .

زِياداتُ البُشْرى

وَلَمّا رَجَعُوا إلى مَكَّةَ ، جاؤوا بعشْرٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَقامُوا بِضَرْبِ الأقداحِ، فَخَرَجَتِ الأقداحُ عَلى عَبْدِ اللهِ فَزادُوا عشراً مِنَ الإِبِلِ ، ثُمَّ ضَرَبُوا الأقداحَ ، فَخَرَجَتْ عَلى عَبْدِ اللهِ أَيضاً ، فَزادُوا الإِبِلَ عَشراً وهٰكذا .. يَزيدُونَ ثُمَّ يَضْرِبونَ حَتّى بَلَغَ عَدَدُ الإِبِلِ مِائَةً ، وَعِنْدَها خَرَجَتِ الأقداحُ عَلى الإِبِلِ .. فَصاحَ القَوْمُ :

أَفْلَحَتِ العَرّافَةُ .. أَبْشِرْ يا سَيِّدَ قُرَيشٍ : أَبْشِرْ يا عَبْدَ المطَّلبِ .. أَبْشِرْ يا شَيْخَ مَكَّةَ .. لَقَدْ نَجا وَلَدُكَ وَحَبِيبُنا عَبْدُاللهِ ، وَها هيَ ذِي إرادةُ الآلِهَةِ قَدْ تَحقَّقَتْ راضِيةً في فِداءِ عَبْدِ اللهِ .. تَعالَ وانْظُرِ الأقداحَ ، تعالَ لِترى كيفَ رَضِيَ رَبُّكَ يا عَبْدَ المُطَّلِبِ ؟ وَتَتالَتِ النِّداءاتُ وَازْدادَ الصِّياحُ .

الفِداءُ والنَّجاةُ

وَلٰكِنَّ عَبْدَ المطَّلبِ لَمْ يَتَسَرَّعْ في قَبُولِ البُشْرى ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحقَّقَ بِدَوْرِهِ مِنْ خَبرِ الفِداءِ.. وَضُرِبَتِ الأقداحُ أَمامَهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ مُتَتالِياتٍ فَخَرَجَتْ عَلى الإبِلِ ، فاطْمَأَنَّ عِنْدَها عَبْدُ المطَّلبِ ، وَنَظَرَ الجميعُ إليهِ وَعَيْنُهُ قريرةٌ بِفِداءِ وَلَدِهِ الغالي ، وَثَغْرُهُ باسِمٌ بما وَصَلَتْ إليهِ عَمَلِيَّةُ القُرْعَةِ في الأقداحِ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، وَأَمَرَ بِأَنْ تُنْحَرَ الإبلُ المائةُ ، فَقامَ القَومُ بِنَحْرِها جَميعِها ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ :

يا أَهْلَ مَكَّةَ .. إنَّ ما نَحَرْتُمُوهُ مِنَ الإبِلِ هُوَ لَكُمْ حلالاً سائِغاً فَكُلُوا

مِنْهُ وَاطْعَمُوا، وَلا تَصُدُّوا عَنْهُ إِنْساناً ، وَلا حَيَواناً ، وَلا طَيْراً ، يا أَهْلَ البَلَدِ الحَرامِ ، كُلُوا مِنْ فِداءِ وَلَدي لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي أَكْثَرَ ، وَأَتَيَقَّنَ مِنْ تَحْقِيقِ نَذْرِي عَلى أَتَمّ وَجْهٍ.. هيّا يا قَوْمِ ، هَيّا.. هَلُمّوا إلى الطَّعامِ والشَّرابِ.

عِيدٌ سَعِيدٌ

وَكانَ فِداءُ عَبْدِ اللهِ عِيداً لِقُرَيْشٍ وَأَهْلِ مَكَّةَ ، قَضَوا فِيهِ أَيّاماً حافِلَةً بِالطَّعامِ ، مَلِيئَةً بِالسُّرورِ وَالبَهْجَةِ .

وَما أُحَيْلاهُ مِنْ عِيدٍ ، لَقَدْ فَرِحَ الجميعُ حَتّى الطَّيْرُ وَالحَيَوانُ ، وَارْتَسَمَتْ عَلاماتُ الرِّضا وَالسُّرورِ عَلى وُجُوهِ الكِبارِ والصِّغارِ . وَرَدَّدتِ الأَلْسِنَةُ : (إِنَّهُ لَعِيدٌ شامِلٌ ، نَجا فِيهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ المطَّلِبِ مِنَ الذَّبْحِ ، فَهَنِيئاً لِلأُسْرَةِ بِرضا الآلِهَةِ عَنْها ، وَلْتَنْعَمْ عَيْنُ الأَبِ بِبَقاءِ وَلَدِهِ حَيّاً ، وَقَبُولِ الفِداءِ في أَمْرِهِ) .

وَهٰكذا تَمَّتِ البَهْجَةُ في هٰذا العِيدِ ، عَلى أَجْمَلِ ما تَكُونُ الأَعْيادُ .

وَهَنِئَتْ نَفْسُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِما كانَ مِنْ أَمْرِ الفِداءِ وَسَلامَةِ أَحَبِّ أَبْنائِهِ إِلَيْهِ .. عَبْدِ اللهِ ..

اسْتِكْمالُ البَهْجَةِ

وَبَعْدَ أَيّامٍ .. كانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يُفكِّرُ في أَمْرٍ هامٍّ وَجَلِيلٍ ، حَيْثُ أَخَذَتْ نَفْسُهُ تُحَدِّثُهُ في شَأْنِ عَبْدِ اللهِ وَتَقُولُ لَهُ : الحَمْدُ لله يا عَبْدَ المُطَّلِبِ

أَنْ أَنْقَذَ ابْنَكَ مِنَ المَوْتِ، وَقُمِ الآنَ لِتَعْرِضَ عَلَيْهِ فَرْحَةً جَدِيدَةً تُكْمِلُ بِها الْفَرْحَةَ التي حَلَّتْ بِمَكَّةَ مُنْذُ أَيّامٍ.. هَيّا يا سَيِّدَ قُرَيْشٍ .. هَيّا إلى وَلَدِكَ عَبْدِ اللهِ .

وَما شَعَرَ عَبْدُ المُطَّلِب إلاّ وابْنُهُ عَبْدُ اللهِ أَمامَ ناظِرَيْهِ ، فَعانَقَهُ وَقَبَّلَهُ .. وَأَجْلَسَهُ إلى جانِبِهِ ، وَبَدَأَ يُحاوِرُهُ حِواراً ما سَمِعَهُ الابْنُ مِنْ قَبْلُ .. لَقَدْ قالَ لهُ أبوهُ : ما رأْيُكَ يا وَلَدي أَنْ نُتِمَّ الفَرحَةَ الَّتي بَدَأَتْ بِنَجاتِكَ ؟ فردَّ الابنُ بأدبٍ وهدوءٍ : وماذا تَعْني يا والِدي رَعاكَ اللهُ لَنا ؟ فَقالَ الأَبُ الوقورُ : أَلَيْسَ جَدِيراً يا وَلَدِي أَنْ نَبْحَثَ عَنْ شَرِيكَةٍ لَكَ في حَياتِكَ؟

حَياءٌ في مَكانِهِ

وَأَطْرَقَ الابْنُ حياءً في الأَرضِ ، وَاسْتَحْيى أَنْ يُجيبَ والِدَهُ ، وَفَهِمَ الأَبُ مِنْ سُكوتِ ابْنِهِ جَواباً بالموافَقَةِ ، وابْتَسَمَ وَهُوَ يَرْبِتُ بِيَدِهِ عَلى كَتِفِ عَبْدِ اللهِ قائِلاً : (هَنِيئاً لَكَ إذاً يا وَلَدِي) .

سَأَذْهَبُ مِنْ فَوْرِي إلى أَعَزِّ البُيُوتاتِ عِنْدِي، وَسَأَخْطُبُ مِنْ هُناكَ أَجْمَلَ فَتاةٍ في مَكَّةَ لأَحَبِّ وَلَدٍ عِنْدَ عَبْدِ المُطَّلِبِ .

إنَّها خاتِمَةٌ لِفَرْحَةٍ عَظِيمَةٍ . وَإذا تابَعْنا القِصَّةَ سَنَرى كَيْفَ تَمَّتْ هٰذِهِ الفَرْحَةُ.. وسَنَعْرِفُ مَنْ صاحِبَةُ هٰذا الحظِّ السَّعيدِ الَّتي سَتَتَزَوَّجُ مِنْ عَبْدِاللهِ .

شكراً لكم على قراءتِكم .. وإلى الحلقةِ التاليةِ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٣

حزنٌ بين فرحتين

بَيْتان كَريمانِ

لَقد أَسرَّ عَبدُ المطَّلِبِ لأَحبِّ أَبنائِه بالخاطرةِ التي دَخلت قَلبَهُ ، وَهيَ أَنْ يَسْتَكْمِلَ بَهجَةَ نَجاةِ عَبدِ اللهِ مِنَ الذَّبحِ ، وذَهبَ مِنْ فَورِه إلى سَيِّدِ بَني زُهْرَةَ المسمّى (وَهبَ بنَ عَبدِ مَنافٍ) فَخطبَ إليْهِ ابْنَتهُ (آمنةَ) عَلى وَلَدِه عَبدِ اللهِ .

وَاجْتَمَعَ البَيْتانِ بِرِباطِ التَّكْريمِ ، فبيتُ عبدِ المطَّلِبِ ، وَبَيتُ وَهبٍ مِنْ أَعْلى البُيوتِ في قُريشٍ سِيادةً وَشَرَفاً وَأَخلاقاً . وَلَقدْ أَحْسَنَ عبدُالمطَّلِبِ في اخْتِيار المنبتِ الذي سَيَشْرَكُ معهُ في بناءِ أُسرةٍ جديدةٍ تثمرُ أَحسنَ الثِّمارِ وَأَطيبَ البركاتِ .. وَسرعانَ ما استجابَ البيتُ الثّاني لِطلبِ سَيِّدِ قُرَيشٍ، وَتَمَّتِ الفَرحةُ ، وَاسْتَكْملَ وَالدُ عَبدِ اللهِ البهجةَ التي أَرادها لِولدِه بَعدَ نَجاتِهِ مِنَ الذَّبحِ .

وَزَواجٌ كَريمٌ

وَنِعْمَ الزَّواجُ بَيْنَ عَروسَينِ طاهَرينِ ، وَقَدْ كانَ حَقّاً زَواجاً مُوفّقاً مَيْمُوناً ، اتَّحَدَ فيهِ عُنصرٌ طَيِّبٌ بعنصرٍ طَيِّبٍ ، وانْضمَّ به أَصلٌ كَريمٌ إلى أَصْلٍ كريمٍ، وكانَ كِلا الزّوجينِ سَعيداً بصاحِبِه ، يُبادلُهُ عَواطِفَ التَّقديرِ والاحْترامِ والحبِّ ، وَيَنظرُ إلى الحياةِ مَعهُ نَظرةً سعيدةً ، فيها أَملٌ حُلوٌ ، وَتطلُّعٌ باسِمٌ إلى مُستقبَلٍ بعيدٍ في طُمأْنينةٍ وَثقةٍ .. وَلٰكِنْ .. هلْ

تَمَّتْ هٰذِهِ السَّعادةُ عَلى مَرأى مِن العروسَينِ؟

إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ أَرادَ مِنْ فِداءِ عَبدِ اللهِ ونجاتِهِ أَنْ يُؤخِّرَ حياةَ هذا الشَّابِّ لغايةٍ أُخرى ، فهلْ كانتْ سَتَتَحقَّقُ في زواجِ الشّابِّ مِنْ آمنةَ بنتِ وَهَبٍ ؟ وهلْ ستنتهي العلاقةُ بَعدَ أن تَتحقَّقَ الغايةُ التي أَرادَها اللهُ للزَّواجِ الكريمِ وللأُسْرَةِ النّاشئةِ ؟

رحلةُ تَدريبٍ

هٰذا ما سَنلمحهُ في الأَسطُرِ المكتوبةِ على الصَّفحاتِ القادمةِ ، إذاً فَلْنتابِعْ سَيْرَ القِصَّةِ ليتمَّ زَوالُ العجبِ والتَّساؤلِ الذي حدثَ لنا في شأْنِ عَبْدِاللهِ ، حَيثُ ذَكرَتِ القِصَّةُ الماضيةُ لنا أَنَّ عَبدَ الله قَدْ نَجا مِنَ الموتِ مَرَّةً فَاستقبلَهُ موتٌ آخرُ ..

لَقَدْ كانَ لِقُرَيشٍ رِحلتانِ تِجاريَّتانِ ، رِحلةٌ في الشِّتاءِ إلى بلادِ اليمنِ وَما حولَها ، وَرِحلةٌ في الصَّيفِ إلى بلادِ الشّام وَما يُجاوِرُها ، وَتنطلقُ كُلُّ قَافلةٍ عادَةً مِنْ مَكَّةَ مُحمَّلَةً بالبضائِعِ النَّفيسةِ ، وتعودُ بِبضائِعَ غيرِها . وأَحبَّ عَبْدُ المطَّلبِ أَنْ يَتدرَّبَ أَبناؤُهُ عَلى أساليبِ التّجارةِ ، فكانَ يُرسلُهم بالتَّناوبِ في الرِّحلتينِ ، وَبَعدَ زَواجِ عَبدِ اللهِ رأى الأَبُ الحكيمُ أَنْ يغتنيَ ابنُه المتزوِّجُ مِنَ التِّجارةِ يَجني بها المالَ والربحَ .

إلى الشّام

مِنْ أَجلِ هٰذا وقعَ اختيارُهُ في عامِ الزواجِ على بيتِ العروسينِ ، وكانت الرِّحلةُ هٰذهِ المرَّةَ قاصدةً إلى بلادِ الشّامِ .

وَلنتصوَّرْ مَعاً يا أَحبّائي وَضعَ المسافرينَ في الزَّمانِ السّابِقِ ـ على الجِمالِ والدَّواب ـ والوقتُ صَيْفٌ والحرُّ شَديدٌ، والسَّفرُ مُتعِبٌ، وعدا عَنْ ذٰلِكَ سَيَترِكُ عبدُ اللهِ عَروسَهُ تُقاسي مَرارةَ الفِراقِ السَّريعِ، وَوَحشةَ الانْفرادِ والوحدةِ المبكّرةِ دُونَ أَنْ تَتوقَّعَ هٰذا الأَمرَ.

وَلَمْ يَشأْ عبدُ اللهِ أَنْ يخالِفَ أَمرَ أَبيهِ، فَلَمْ يَعتدْ مثلَ هٰذا مِنْ قَبلُ، وَانْدفعَ معَ القافلةِ وَسطَ الصَّحراءِ، بِمشقّاتِها وَأَخطارِهَا، وَقطَعَ المسافاتِ الشّاسعةَ والبعيدةَ، وخاضَ في الرّمالِ الواسعةِ تحتَ قَسْوةِ الشَّمْسِ وَلَهيبِ العَطَشِ.

عَودةُ القافِلَةِ

وَأَنهتِ القافلةُ مَهمَّتَهَا في الشّامِ بَعدَ عَمليّاتِ البيعِ والشِّراءِ، ثُمَّ أَعلنَ رئيسُها عنِ الاستعدادِ للعودةِ، وفرغَ الجميعُ مِنْ تَحزيمِ مَتاعِهِمْ وَمشترياتِهِمْ، ثُمَّ تَجمَّعوا، وانطلقتِ القافلةُ راجعةً إلى بلادِها. وَلا تسأَلُوا عَنْ شَوقِ عَبدِ اللهِ للرُّجوعِ.. ولكن اسْأَلُوا: هَلْ تَمَّتْ عَودَتُهُ؟ وَهَلْ تَحقَّقَ لَهُ ما أَرادَ مِنْ سُرعَةِ الوصولِ؟ لا.. فَعبدُ اللهِ يا إخوتي قَدْ مَرِضَ في أَثناءِ الطَّريقِ، وتَعِبَ مِنْ طُولِ السَّيرِ في الصَّحراءِ بين الرِّمالِ وَتحتَ الحرارَةِ اللاهبةِ.. فَلمّا وَصلَتِ القافلةُ إلى يَثْربَ تِلكَ المدينةِ التي تَقعُ عَلَى طَريقِ العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ، أَحبَّ عَبْدُاللهِ أَنْ يَستريحَ فيها أَيّاماً عِندَ بَيتِ أَخوالِهِ، وبذٰلِكَ يَتمكَّنُ مِنَ الوصولِ إلى عَروسِهِ صَحيحَ

البدنِ قويَّ الجسمِ.. وتركَتْهُ القافلةُ، وَتابعَتْ سَيرَها نَحْوَ مَكَّةَ، وَبقيَ عَبْدُ اللهِ، لِيقضيَ اسْتِراحتَهُ.

أَينَ وَلَدِي ؟؟

وَخَرجَ أَهلُ مَكَّةَ على عادَتِهم لاستقبالِ القافلةِ، وَأَعدُّوا احْتِفالاً عَظيماً لهذا الاستقبالِ، فالكُلُّ في ثيابٍ جديدةٍ في الطُّرقاتِ وعلى الشُّرفاتِ، واسْتعَدَّتِ النسّاءُ في تحضيرِ لذيذِ الطَّعامِ والشَّرابِ لأبنائِهنَّ وأَزواجِهِنَّ وإخوتِهنَّ العائدين، وتهيَّأَتِ القلوبُ والنُّفوسُ لِلقاءِ الأَحبَّةِ بَعدَ طولِ الفراقِ، وَجَلَستْ آمنةُ وقَلبُها على أَحرّ منَ الجَمرِ لِرؤْيةِ الزَّوجِ الحبيبِ، ولٰكنْ هَلْ سيدخُلُ عَليها عَبدُ اللهِ بعدَ دقائِقَ؟ الزَّغاريدُ على أَلسنةِ النِّساءِ، والعِناقُ بينَ الأَحبَّةِ في البيوتاتِ، وعبدُ المطَّلبِ يدورُ بينَ العائدينَ، يُحاوِلُ أَنْ يَرى ابنَهُ فلا يراهُ!! وكادَ فُؤادُهُ يَخرجُ مِنْ صَدرِهِ وهو يُنادي: (وَأَينَ عبدُاللهِ ياقوم؟ أَينَ وَلَدِي ياتُجَّارَ القافلةِ؟ أَلم يَعُدْ مَعَكُمْ؟ أَلم تَأْخُذوهُ إلى الشَّامِ؟ تكلَّموا.. ما لكُمْ لا تنطِقون؟).

لَقَدْ مَاتَ .. !

وَقالَ قائلٌ مِنهُمْ: عَبدُ اللهِ عندَ أَخوالِهِ في يثربَ، وسيَمْكُثُ أَيّاماً هُناكَ، فَسارَعَهُمْ عبدُ المطّلبِ قائلاً: أَحدَثَ لهُ مكروهٌ؟ فردَّ عليهِ آخرُ: مَرِضَ من تعَبِ الطّريقِ، وسَيُشْفى قريباً بإذنِ اللهِ..

وَلٰكِنَّ عَبدَ المطَّلبِ قد فوجِئَ لا محالةَ بما لَمْ يَتوقَّعْهُ ، وَلَمْ يتمالكْ نَفْسَهُ ،
وَالْتَفتَ إلى أكبرِ أولادِهِ (الحارثِ) قـائلاً : طِرْ على الفـورِ يا ولَـدِي إلى
يثربَ ، واحْمِلْ أَخـاكَ عبدَاللهِ إلى هُنا ، وَعَلى جَناحِ السُّرعـةِ كانَ الحارثُ
قَدْ أَعـدَّ راحِلتَهُ ، وانطلقَ بها إلى يثربَ ليعـودَ بأخيهِ المريـضِ إلى مكَّةَ ،
ولٰكنْ ما إنْ وَصلَ إلى بَيتِ أَخوالِهِ حتّـى اسْتَقْبلَهُ النّاعي بلا مُقدّماتٍ :
(لَقَدْ ماتَ عبدُاللهِ ، وَدَفنّاهُ في مدينتِنا عِنـدَ أَخوالِهِ) ! وكَأَنَّ صاعقةً قَد
خرَّتْ عَلى الحارثِ مِنْ هَولِ الخبرِ !! وهطلتِ الدُّموعُ غزيرةً ..

مَوْقِفٌ صَعْبٌ

إنَّهُ لمَوْقفٌ صَعْبٌ .. عَليهِ أَنْ يَسمعَ الخبَرَ .. ومِنْ ثـمَّ يوصِلُهُ بأمانَةٍ
إلى سيِّـدِ قُريـشٍ مُنْتظِرِ الجوابِ، وعـادَ الحارثُ مجروحَ القلبِ ليُلقـيَ
بِالخَبَرِ إلى أبيهِ ، ويـا للخبَرِ المَشْؤومِ ! (أَحبُّ أبنائِكَ يـا أبي قد ماتَ ،
نَعَمْ. لَقد ماتَ ودفنَهُ أَخوالي عِندَهُـمْ ، لِذٰلِك عُدتُ إليكَ وَحدي فارغَ
اليديـن) ! ولٰكنْ يـا أحبّائي مهما يكـنْ إيصالُ الخبرِ إلى الأبِ السيِّـدِ
صَعباً ، فَالأَمـرُ أَصعبُ ولا شكَّ في إيصالِهِ إلى مَنْ عـاشَ مَعَها عبدُاللهِ
أيّاماً وهي لا تزالُ في ثِيابِ العُرْسِ ..

وَقامَ الشَّيخُ مُتَحامِلاً عَلى نَفسِهِ وَالجميعُ يُحيطونَ بِهِ ، حَتّى إذا وَصلَ
إلى بَيتِ آمنةَ أَخذَ يَتَصنَّعُ البِشْرَ ، ولٰكنَّـهُ لا يعرفُ كيفَ يَبْدأُ ؟ وَفهِمَتْ
آمنةُ كـلَّ شيءٍ ، واقتربَتْ مِنْـهُ قائلةً : (فِيـكَ العِوَضُ كلُّـهُ). ثُمَّ ارتمَتْ

باكيـةً زَوجَها ، وشـاركَتِ الكُلَّ دُمـوعَهُمْ ، بينَما راحُـوا يُواسـونَها وهُمْ
يبكون.

سَكينةٌ وَهُدوءٌ

وَعادَ عبدُ المطَّلِبِ مُسْرِعاً إلى الكَعبةِ فَلَـمْ يتحمَّلْ رُؤيَةَ آمنةَ غارقةً في
الـدُّموعِ والبكـاءِ ، وازدادَ بكـاؤُهُ عنـدَ البيـتِ الحـرامِ ، وَرفعَ يـدَهُ إلى
السَّماءِ وَهُـوَ يقولُ : يـاربِّ أَهْدئْ نفسَـها ، وأسكِـنِ الطُّمأْنينةَ قَلْبَهـا ،
وَعوّضْها نِعْمةً تُنسيها مُصابَها ..

وَمِنْ غَـريبِ الأمـرِ لدى نساءِ مكّـةَ أَنَّهنَّ رأَوا بَعدَ أَيّـام أَنَّ الحزنَ قَدْ
فارقَ آمِنَـةَ إلى غيرِ رَجعةٍ ، وسرعـانَ ما جَفَّـتْ دموعُهـا الغزيـرةُ، فماذا
حدثَ يا تُرى؟ هَلِ استجابَ اللهُ دعوةَ الشَّيخِ الكبيرِ ؟ إنَّ آمنةَ لتحسُّ
اليومَ بِسَكينةٍ لَمْ تَشْعُرْ بها مِن قبلُ ! لَقَدْ مَلأَتِ الطُّمأْنينةُ نفسَها وقَلبَها ،
وَدَخَلَها مِنَ الهدوءِ والرِّضـا الكثيرُ الكثيرُ ، وَمَعَ أَنَّها كانَت تُـدافِعُ هٰذا
الشعورَ ، فلمْ تَسْتَطِعْ ، وازدادَ العَجبُ من حَولِها : (امرأَةٌ عَروسٌ يموتُ
زوجُها وتَنطفئُ دموعُها ؟!!) .

لا تَحْزني يا آمنةُ

وَأَعْجبُ العَجَبِ أَنَّ آمنةَ قد أَخـذَتْ تَسمعُ نداءاتٍ متكرِّرَةً ، وكأَنَّها
لَيستْ وحيدةً في بيتِها ، بل يوجدُ هنـاكَ من يحاورُها ويُحدِّثُها ، وكانَتْ
هـذه النِّداءاتُ تُبيِّنُ لها أن مَـوتَ زَوجِهـا لَمْ يَكنْ شرّاً يُـرادُ بها ، وَأَنَّ اللهَ

سَيُعوِّضُها الخيرَ الكثيرَ ، والنِّعمَ الوافِرَةَ ، وَبَدأَتْ آمنةُ تَرى في نومِها أنواراً ساطِعَةً لم تَعهدْ مِثلَها ، وتمَثَّلتْ لها مجموعاتٌ مِنَ الصَّبايا الجميلاتِ يُنشِدْنَها أُغنياتِ الأملِ السَّعيدِ مِنْ أسرةِ آمنةَ وعَبدِالله، وَتَقولُ لها : لا تحزني يا آمنةَ ، وإذا ما شعرتِ بالحزنِ فَهاكِ سعادةً ونشوةً تَغْمرانِكِ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، وَإذا ما تَذكَّرتِ عبدَالله ، وبادَرتْ دموعُكِ في النُّزولِ والانْهِمارِ ، فَسَرْعانَ ما سَنأتي إليكِ لِنُؤْنسَكِ وَنُسلّيكِ، ليعودَ إليكِ النَّشاطُ والمرحُ .. انتظري أمراً هامّاً يا آمنةُ ، يحُلُّ مكانَ فراغِ عبدِالله !!؟ .

أَنتِ حاملٌ !!

وآمنةُ لا تحكي هذا لأحَدٍ ، والآخرونَ لاَ يجْرؤُونَ عَلى سؤالِها ، وَكأنَّ شَيْئاً يمنعُهُم مِنَ الاستفسارِ بِرغمِ أَنَّهُمْ يَقرؤُونَ في وَجْهِ آمنةَ الكثيرَ مِنَ الغَرابةِوالعجبِ، فَمَنْ سيعرفُ عنها يا تُرى ؟ هَل حَكتْ لوالِدِ عبدِالله؟ هَل مَنْ سَمِعَها مِنْ وَراءِ حِجابٍ؟ ولمْ ينتهِ الأمرُ لدى آمنةَ عند هٰذا الحدِّ مِنَ السَّكينةِ والهدوءِ ، فبينما هِيَ آويَةٌ إلى فِراشِها كَعادَتِها في إحدىٰ الليالي، رَأَتْ خيالاً يَدْنُو منْها بلطفٍ ويبتَسِمُ قائلاً لها : يا آمنةُ.. صَحيحٌ أَنَّ عبدالله قد ماتَ ، وفي ذلك ما يُسبِّبُ الحُزْنَ والبكاءَ الشَّديدَ ، وَلا سيَّما وَأَنَّ عبدَالله مِنْ خيرةِ شبابِ مَكَّةَ وأَحسَنِهِمْ ، وَهو أَحَقُّ مَن يُحْزَنُ عَلى فِراقِهِ وَيُبكى عَلى مَوتِهِ ، وَلٰكنْ لكِ البُشْرى مِنَ اللهِ يا آمنةُ ، إنَّكِ قد حملتِ في أحشائِكِ طفلاً من أثرِ عبدِالله ، وعمّا قريبٍ

ستكونينَ والدةً وأُمّاً ، وسَيكونُ طفلُكِ سيِّدَ الأُمَّةِ وذاشأنٍ عَظيمٍ!!.

شَكٌّ في الأمرِ

وفكَّرتْ آمنةُ كثيراً .. هَل هذِهِ البُشرى هي السَّعادةُ التي حَدَّثوني عَنها في رُؤيايَ مِنْ قبلُ ؟ هَل الطِّفلُ علامةُ رِضا وبدءُ خيرٍ كثيرٍ؟ وانْتَظرتِ الأمُّ أَنْ تُحِسَّ مَا تحسُّهُ الحواملُ مِنْ علاماتِ الوِحامِ والضَّعفِ والتَّعبِ ، إلاَّ أَنَّها لَمْ تجِدْ مِن هٰذا شَيئاً ، وتَتابعتِ الأَيّامُ في مُرُورِها ، وآثارُ التحملِ لا تَظهَرُ ، فالأمُّ سَليمةٌ ، وَنَشاطُها في ازدِيادٍ ، وسَعادَتُها وسرُورُها واضحانِ على محيّاها !!.. أَلمْ يَقلْ لهَا الخبرُ الأخيرُ : إنّكِ حاملٌ يا آمنةُ ؟ فأَينَ آمنةُ من علاماتِ الحملِ وآلامِهِ ؟؟.

لا بُدَّ وَأَنَّ الأمرَ على عَكسِ مَا سمعَتْهُ .. !! لٰكنَّ صاحبَ الكلامِ عادَ مِن جديدٍ ليؤكِّدَ لها ثانيةً .. وطَمأَنها أَنها سَترى بَشائِرَ الحملِ عَمّا قريبٍ، وأَنَّ حمْلَها يختلفُ عَنْ حَمْلِ النِّساءِ ، وَذكَّرَها مِنْ جَديدٍ أَنَّ وَلَدَها سَيكونُ خيرَ أَهْلِ الأَرضِ ، وسيدَ العالمينَ والبشرِ .

سَمِّهِ مُحمَّداً

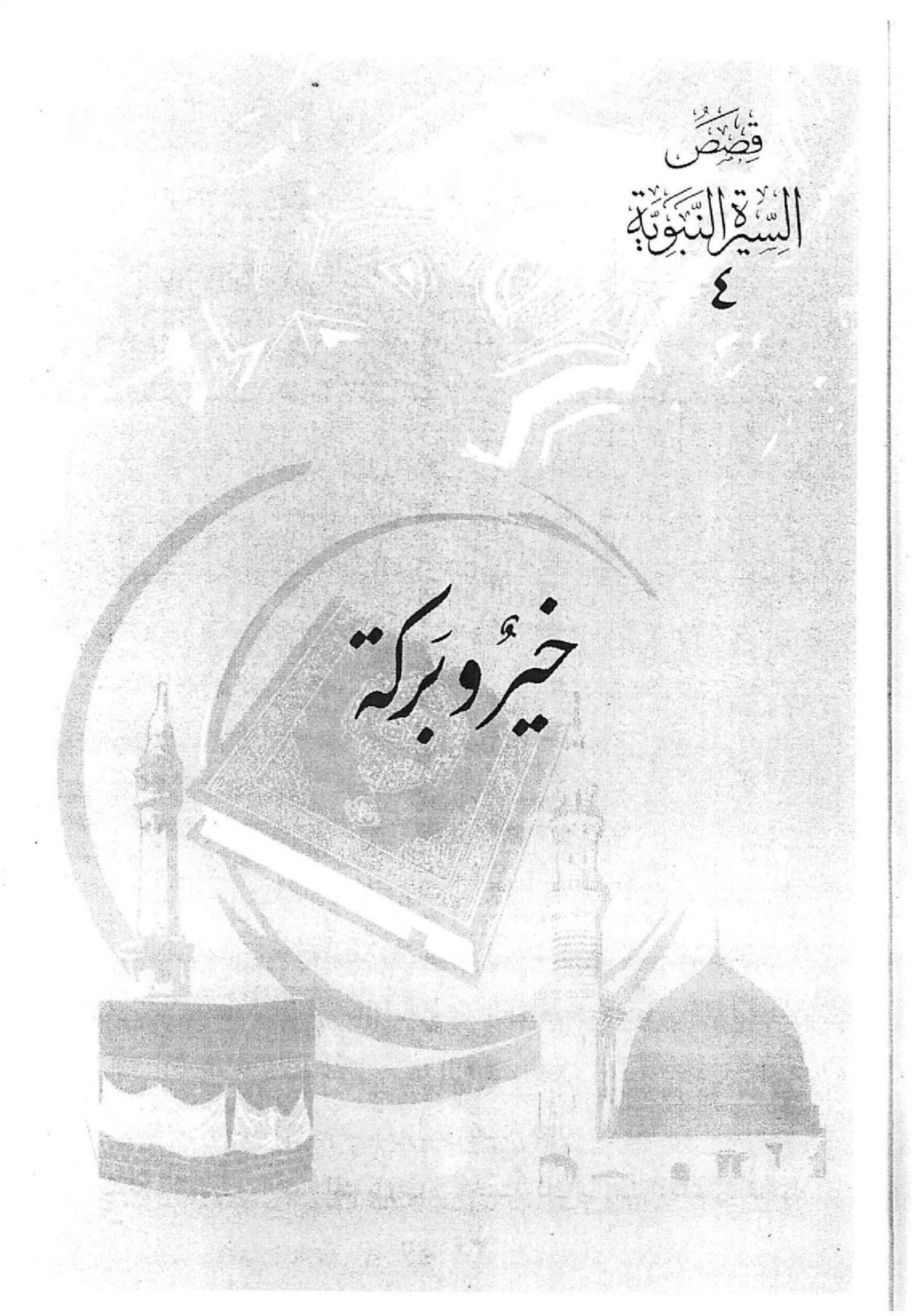
وَمَرَّةً أُخرىٰ وأَخيرة ، حَرَصَ فيها الهاتفُ المتحدِّثُ أنْ يُطمئِنَ قَلبَ آمنةَ، ويَمحُوَ الشكَّ مِنْ صَدْرِها ، ويزيلَ الآراءَ الغريبةَ من نَفسِها ، فها هُو ذا يُنبئُها ذاتَ لَيلَةٍ بأمرٍ يختلفُ قليلاً عَمّا سبقَهُ ، لَقَدْ قالَ لها : (اسمعي يا آمنةُ .. إنَّ لَنا طلباً هاماً عِندكِ ، وعَلَيْكِ أَنْ تَسْتَبْشِري فيه

أَعْلى مَراتبِ الخيرِ والهناءِ) . وأَنْصتَتْ آمنةُ لِتَسْمعَ وتَعيَ أهمَّ خبرٍ جاءَها .. وتَابعَ الصَّوتُ يقولُ: (فإذا جاءَكِ المَولودُ قريباً يا آمِنَةُ ، فلا تَحْتاري في أَمْرِ تَسميتِه .. إنَّ هناك اسْماً حُلواً وَجميلاً ، وَما عَلَيكِ إلاَّ أن تُسمّيهِ بِهِ ، وإنَّ هذا الاسمَ هُوَ (مُحَمَّدٌ) .. (مُحَمَّدٌ) .. (مُحَمَّدٌ) احفظيه فإذا جاءَ المولودُ فسمِّهِ (محمّداً).. وَأَخَذَتْ آمِنة تردِّدُ الاسمَ، بينما راحَت قدماها تَجرّانِها دونَ وعيٍ إلى بعض صاحباتها تحدثُهنَّ وَهي لا تكاد تصدِّقُ .

نورٌ غريبٌ

ثُمَّ أَكّدَ الأمرَ وَأزالَ الحيرةَ ظُهورُ بشائِرِ الحملِ وحَقيقتِه ، فَسكَتَتْ آمنةُ عَنِ التّحدُّثِ بالأمْرِ، فإنَّ لمولودِها شَأناً عظيماً ، ويُخشى عليها وعليه من الحَسدِ . وَفي إحدى اللّيالي ، رأتْ نُوراً يَخرجُ مِنها فيضيءُ الدنيا بأكملِها ، وأَتَمَّتْ بَعْدَها شهورَ الحَملِ التِّسْعَةَ ، وأَذِنَ الله للمَولودِ أنْ يخرجَ ليضيءَ الدُّنيا ، ويرحَمَ البشريَّةَ الضائعَةَ .

إنَّه هو ذو الشّأْنِ العَظيمِ ، وهُو النُّورُ الغريبُ الذي رَأَتهُ في المنامِ . وبِسهولةٍ غريبةٍ .. وَفي يوم اثنين من ربيعِ الأوّلِ من السَّنةِ التي حَدَثَتْ فيها حادثةُ أبرهةَ الحبشيِّ أيْ في عامِ الفيلِ .. في هٰذا اليوم ليلاً ، وُلِدَ محَمَّدٌ مع النُّورِ الباهرِ المُنْتَشِرِ ، رافعاً رأْسَهُ إلى السَّماءِ ، وواضعاً يديهِ عَلى الأرضِ.. فَقولوا معي يا أحبَّتي .. أَهْلاً بمولودِ آمنةَ ، أهْلاً بابْنِ عبدِاللهِ وهنيئاً لمن سيتابعُ قصَّتَكَ الحلوةَ .. قصَّةَ صاحبِ الخُلُقِ العظيمِ ﷺ.



البشْرى يا سَيِّدي

.. والآن وَمَعَ فَرْحتِنا سَأسألُكُمْ يا أحبّائي سُؤالاً سَهلَ الجوابِ ، حاولُوا أنْ تَفهمُوهُ جَيّداً ، ثُمَّ تَعْرِضوا عليَّ الجوابَ : (عِندما يُولدُ طِفلٌ صَغيرٌ في بَيتِكُمْ، ماذا يَفعلُ أَهلُ المولودِ) ؟ أراكُمْ تَقولونَ : يُخبرُ بَعضُهمْ بَعضاً ، وَيقومُونَ بتبشيرِ والدِ المولودِ قَبْلَ غَيْرِه ، لأنَّهُ أَحقُّ مَنْ يَدري بِخَبرِ الوِلادَةِ، إذاً : أَلا تَفعلُ آمِنَةُ أُمُّ سَيِّدِنا مُحمَّدٍ الفعلَ نفسَهُ مَعَ مَنْ سيَتولّى أمرَ مُحمّدٍ بَعدَ أبيه ؟ حَتماً يا أعزّائي ، فلقدْ أَرسَلَتْ آمِنةُ جاريتَها إلى سيّدِها وعمِّها عَبدِ المطّلبِ، تُخْبِرُه بأنْ قَدْ وُلِدَ للأُسرةِ غُلامٌ.. هٰذِهِ اللّيلةَ ، فَهنيئاً لكَ يا شيخَ قُريشٍ ، وإنْ أردْتَ إحضارَهُ إليك فَعلْنا ، ولَكَ الخيارُ في تربيته ، وَنِعمَ ما تَراه منْ قَوْلٍ أو عَملٍ .

الفَرحةُ أَوّلُ الشّكر

وَوَصلَتِ البشارةُ إلى عبدِ المطّلبِ ، وَلَمْ يَستطعِ القُعودَ ، فَقامَ مِنْ فَورِهِ مُسرعاً إلى بيتِ آمنةَ لِيرى النُّورَ يُضيءُ البيتَ ، فَفاضَتْ عَيناهُ بِالدَّمعِ منْ شدَّةِ الفَرحِ ، وافترَّ ثَغرُهُ عن ابْتسامةِ الوقارِ والحبِّ والعطفِ والحنانِ ، وَامتلأَ قَلبُه شَوقاً لِرؤيَةِ الوليدِ ، فَاقتربَ منهُ بِلطفٍ ، وَنَظرَ إليهِ فَأَعجبَهُ أشدَّ الإعجابِ ، وَنَزلَ في نَفسِهِ مَنزلةً عَظيمةً ، فَحملَهُ وَهو يُقبِّلُهُ ، وَيقولُ : الحمدُ لكَ يَا ربِّ .. الحمدُ لك يا ربَّ العالمينَ، شُكراً

لَكَ عَلى أنْ رزَقْتَنا وَلداً لِعبدِ اللهِ ، وَلَمْ تَحرِمْنا منْ ذُرِّيّتِه ، وهٰذِه أكبرُ نعمةٍ تَمنُّها عليَّ إذْ أنقذْتَ وَلدي مِنَ الذَّبحِ ، ورزقْتَهُ وَلداً بهٰذِهِ الرَّوعةِ وهذا الجمالِ . وازدادَ عَجبُ عَبدِالمطَّلبِ بَعدَ أَنْ حَدَّثَته آمنةُ بِما رأَتْهُ وسمعَتْه قَبلَ وِلادتِهِ .

يَومُ العَقيقةِ

وَما كانَ منْ عَبدِ المطَّلبِ إلا أنْ سارَ بِهِ إلى الكَعبةِ يَدعُو الله هُناكَ ، ويَشكرُهُ عَلى غُلامٍ خالٍ مِنَ العُيوبِ ، وكاملٍ في أَفْضلِ الصِّفاتِ التي يأْتي بها المولودُ ، ولَمّا كانَ اليومُ السّابعُ ذَبحَ عَبدُالمطّلبِ للمولُودِ جَملاً ، وَدَعا المساكينَ والفُقَراءَ وَرِجالاً مِنْ قُريشٍ ، لِيحضرُوا يَومَ العَقيقةِ والضِّيافةِ كَما هي العادةُ عندَ العربِ ، فَأَتى المَدْعوّون وأكلُوا وشَرِبُوا هانئينَ مُهنِّئين بالطِّفلِ السّعيدِ، مُتمنّين لَهُ رِفعةَ المقامِ ، وطُولَ العُمرِ، وسعادةَ الحياةِ . ثُمَّ أَحبُّوا أنْ يعرفُوا المزيدَ عنِ المولودِ الجديدِ ، فَقالُوا : وَما أَسميْتَهُ يا سيِّدَ قُريشٍ؟ فَقالَ : لَقدْ سَمَّيتُه مُحمَّداً .. لِيحمدَهُ اللهُ في السَّماءِ، ويَحمدَهُ النّاسُ في الأَرضِ .

إلى مَراضِعِ البادية

وَرضعَ محمدٌ ﷺ مِنْ ثُويبةَ جاريةِ عمِّهِ أبي لهبٍ ، لكنَّ هٰذا لمْ يَدُمْ إلاّ عِدَّةَ أيّامٍ ، فَإنَّ عادةَ أهلِ البُيوتِ الكَريمةِ في مكةَ أَنْ يُرسلُوا أطفالَهُمْ المولُودينَ إلى مَراضعِ الباديةِ ، يَقضونَ هُناكَ الأشهُرَ المخصَّصةَ لِلرّضاعِ

وَالحضانةِ والفِطامِ ، وذٰلكَ لاعْتقادِهمْ أنَّ هَواءَ الباديةِ أنقى وأحسنُ تَأثيراً في نُموِّ الأطفالِ الصِّغارِ ، كَما أنَّ مِن عادةِ المَراضِعِ يا أحبَّتي أنْ يَأْتِينَ إلى المدنِ وإلى مكَّةَ خاصَّةً يَبْحَثْنَ عَنْ رِزقِهِنَّ عِندَ مَنْ جاءَهُم مَولودٌ مُحتاجٌ لِرضاعَةِ نِساءِ الباديةِ ، وكُلُّ مُرضعةٍ تَلتمسُ مِنْ ذٰلكَ أجراً عالياً مِنَ الأغنياءِ والكُرماءِ الذّينَ لا يَبخلُون عَنِ البذلِ في التَّربيةِ والرّضاعِ والنَّشأةِ في الباديةِ.

إنَّهُ يَتيمٌ

وَمِنْ حُسنِ الحظِّ أنَّ عَدداً مِنَ المَراضعِ مِنْ بَني سعدٍ أَتَيْنَ يَلتمِسْنَ في مكّةَ بحثاً عَنْ رِزقِهِنَّ وَطَمَعاً في أولادِ الأغنياءِ ، وَبدأَ البَحثُ ، ولمّا عَرَضَتْ آمِنةُ عليهنَّ رَضيعَها ، كانَتْ كُلُّ واحدةٍ مِنهنَّ تَسأَلُ عَنِ المَولودِ ، وَعَنْ والدِهِ وأُسرتهِ وَأَحوالِهِ الماديّةِ ، ولكنْ ما إنْ تَسمعُ أنَّ الولَدَ يَتيمٌ حتّى تَقولَ : وَماذا أَصنعُ بهِ؟ إنهُ يتيمٌ ، ويَتامى الأطفالِ لا يُغنونَنا مِنْ جُوعٍ .. لا رَغبةَ لِي بِهِ !!

وَهٰكذا زَهدتِ المَراضعُ بمحمَّدٍ ، وأبعدَهُنَّ يُتمُهُ عَنْ قَبولِهِ فليسَ لَهُ أبٌ يَطمَعْنَ في مالِهِ وكَرَمِهِ .. وَبَكَتْ آمِنةُ ، وَقالَتْ في نَفسِهَا : لو كانَ عبدُ اللهِ عَلى قَيدِ الحياةِ لَما بكيتُ .. ولَما اعْتذرَتِ المرضِعاتُ عَنْ أخذِ وَلَدي ، ثُمَّ ضمَّتْ وَلدَهَا إلى صَدرِها ، وأفاضَتْ عَليهِ مِنْ حَنانِها وَلَبنِها وَدُموعِها..

إلى الخيرِ يا حَليمةُ

وَكانَ مِنْ بينِ المرضعاتِ امْرأةٌ تُسمّى حَليمةَ بنتَ الحارثِ مِنْ بني سعدٍ، قَدِمَتْ مَعَ زَوجِها وَطفلٍ رَضيعٍ لَهُما ، وَكانَ كُلُّ مَنْ رَآها يَستدلُّ مِنْ حالِها على شِدَّةِ فَقرِها وَقِلَّةِ ذاتِ يَدِها ، وَظَهرَتْ أمامَ الجميعِ بثيابٍ رثَّةٍ، وَضعفٍ شَديدٍ ، وَهُزالٍ أتعبَ جسمَها ، وَزوجٍ ظاهرِ البؤسِ ، وَطِفلٍ يَصرخُ مِنَ الجوعِ لقلّةِ الحليبِ في ثَدييها . أَضيفوا إلى ذٰلك أنَّها تَركبُ حِمارةً هَزيلةً ذاتَ قَوائمَ ضعيفةٍ لا تكادُ تَستطيعُ حَملَ الطّفلِ الرَّضيعِ ، حتّى إنَّ حَليمةَ قَدْ تأخَّرَتْ عن الرَّكبِ والمرضعاتِ اللاّئي سخِرنَ مِنها لكثرةِ تعثُّرِها وتريُّثِها ، وَزَوجُها راكبٌ على ناقةٍ ضامرةٍ مُسنّةٍ لا يَقطرُ ضِرعُها بِقطرةٍ مِنَ الحليبِ .. صُورةٌ كاملةٌ مِنَ الضّعفِ والهُزالِ اصْطحبَها ركبُ حَليمةَ .. عند البحثِ عن رَضيعٍ في بيوتاتِ مكَّةَ .

شَفقةٌ في مكانها

وَلمّا دَخلَتْ حليمةُ عَلى آمنةَ مِثلَ غَيرِها مِنَ المرضعاتِ ، زَهِدَت في طِفلٍ يَتيمٍ ، وخرجَتْ دونَ أَنْ تأخذَهُ ، إلاّ أنَّ المرضعاتِ الأخرياتِ حَصلْنَ جميعاً عَلى أبناءَ مِنْ أولادِ الأغنياءِ والموسرينَ، وَبَقيَتْ حَليمةُ فارغَةَ اليدينِ، فَسألَها زَوجُها : ما لكِ يا حَليمةُ ؟ لماذا عُدْتِ فارِغةَ اليدينِ !؟ قالَت : التّعاسةُ قدْ لحقَتْنا إلى مكّةَ ، إنَّني لمْ أحظَ إلاّ بِطفلٍ

يتيم مـات أبوهُ ، وَلَيس لَـهُ مِنْ كَفيـلٍ سِوى جَدِهِ ، فماذا أفعـلُ ؟ إنَّني زَهِدْتُ فيـهِ أُسوةً بِصاحباتي ، وقُلْـتُ في نَفسي : هَلْ أَزيدُ فقـريَ فَقراً، وبؤسيَ شَقاءً؟ أَلا يكفينا ما نحنُ فيه ؟ وَبَعْدَ أنْ صَمَتَتْ قليلاً قالَتْ :

ولٰكنْ يـا زَوجي ، لا أدري لماذا أَحبَبْتُ هٰذا الطِّفـلَ اليتيمَ مُنذُ أَنْ رأَيتُهُ ؟ لَقَدْ حَنوتُ عَليهِ وأشفقتُ، وأرى نَفسيَ مَشُوقةً لأَخذِهِ ، وَقُلتُ: أَستأذِنُكَ أوّلاً في الأَمرِ لأرى ما عَساكَ تَقولُ ؟!

إلى آمِنَةَ

وَشَعَر الزَّوجُ بِشعورٍ غَريبٍ ، وَحَنانٍ فاقَ حَنانَ زَوجتِهِ حَليمةَ ، ومالَ قَلبُهُ إلى الطِّفلِ اليتيمِ عَطفاً وحنـاناً دُونَ النَّظرِ إلى الغِنى والبِرِّ والكرمِ ، فَقالَ لحليمـةَ: وَما أرى إلاّ أنْ تَـأخذيـهِ يا حَليمـةُ، صَحيحٌ أنّـهُ يتيمٌ ، ولٰكنَّ الأفضلَ أنْ نَرجعَ ومعنا غُلامٌ. اِذهبـي حالاً إلى أُمِّهِ الّتي خَرَجْتِ مِنْ عِندها ، واحْملي الطِّفلَ إلينا ، لَعلَّ اللهَ يجعـلُ لَنا مِنْ أمرِنا يُسراً ، فلا فَرَجَ إلاّ بَعدَ مَشقَّةٍ ، وَلا سَعادةَ إلاّ بَعْدَ طُولِ عَناءٍ ، هَيّا يا حَليمةُ تَوَكَّلي على اللهِ ، واسْتمدّي العَـونَ مَنْ خـالقِ الأطفـالِ ، وَإنّي أسألُـهُ أنْ يُغيِّرَ حَالنـا بأحسنِ حـالٍ ، ويكتبَ لنـا في اليتيم الصَّغير كلَّ خيرٍ وبـركةٍ. وازْدادتْ حليمةُ اقتنـاعاً مِنْ كلامِ زَوْجِهـا ، وَحمدَتِ اللهَ على أنْ هَداهُما إلى الفِكرةِ نَفسِها ، وأنْ جَعَلَ قَلبيهِما يشفقانِ على هٰذا اليتيمِ .

امْتِلاءُ الثَّدْيَيْنِ

وَذَهبَتْ مِنْ فَورِها إلى بيتِ آمنـةَ وحكَتْ لَها رَغبتَها في أخذِ الغُلامِ ، فَفـرِحَـتْ آمنـةُ، وَشَكرَتِ اللهَ عَلى أنْ خفَّـفَ مِـنْ حُـزنِها على الطّفـلِ الصَّغيرِ ، وَقَدَّمَـتْ إلى حَليمةَ فِلْذَةَ كبدِهـا وَوَحيدَها ، بَعـدَ أنْ طَبَعَتْ على وَجنتيـهِ وَجَبينهِ قُبـلاتِ الـوَداعِ ، فَقَـدْ يَمتدُّ الفِـراقُ إلى السَّنتينِ ، وَأَخـذَتْ حَليمةُ الطِّفـلَ اليتيـمَ ، وضَمّتـهُ إلى صَدرِهـا ، وَوَضعَتْـهُ في حِجرِها ، فَأَحسَّـتْ بأنَّ ثَدييها قَد مُلِئا باللَّبنِ !. وَعَجِبَـتْ مِنْ أمرِها ، فَقبلَ أنْ تُمسكَ مُحمّـداً لَمْ يَكُنْ فيهما ما يَسُدُّ رمقَ طِفلٍ واحـدٍ تحملُهُ مِنْ قبلُ ، أمّـا الآنَ فَقَدْ رَضِعَ الأوّلُ حتـى شَبعَ والثّاني حتّـى شَبعَ دُونَ أنْ ينقصَ حَليبُها شيئاً !!

إنَّها واللهِ بدايةُ الخيرِ والبركَةِ ، ولا بُدَّ أنَّ في الأمرِ سِرّاً !!.

ضَرْعُ الناقَةِ

وَجَعلتْ تُسبِّحُ اللهَ قائلةً : سُبحانَ مَـنْ أَرشدَنا إلى أخـذِهِ ، إنّهُ واللهِ لَفاتحةُ سَعادتِنا إنْ شـاءَ اللهُ ، وعادَتْ لتحكيَ لزَوجِها ما جَـرى مِنْ أمرِ امتْلاءِ الثَّديينِ ، فَنظرَ الزّوجُ إلى الطِّفلِ الجديـدِ ، وَأدركَ أنّه يَحملُ بَركةً لا تُعـادلُها بَركـةٌ .. على الرُّغـمِ مِـنَ اليُتمِ وزهْـدِ المُرضعاتِ في أخـذِهِ . وبَعدَهـا قامَ إلى نـاقتِه الهزيلـةِ وَقَد اشْتـدَّ بِهِ الجُوعُ والعطـشُ ، لِيعصرَ

ضِرعَهَا مِنْ لَبنٍ لَمْ يرَهُ فيها قَبلَ الآنَ! . وصاحَ تَملؤُهُ الدَّهشةُ : ياحَليمةُ! ضَرعُ النّاقةِ يَفيضُ لَبناً ، وَما إنْ أمسكْتُهُ حَتى دَرَّ بغزارةٍ عَجيبةٍ !! وَشَربَ وشَربَتْ زَوجتُهُ ، حَتّى لَكأنّهما قَدِ ارتوَيا عَنْ أيّامٍ فائتةٍ وأيّامٍ مُقبلةٍ !! وَهُما يَقولان:

الحمدُ لله الذّي أنعمَ عَلَينا ببركَةِ هٰذا اليتيمِ ، فَلَقَدْ حَصلنا على قِسمةٍ مباركةٍ طيبّةٍ ثُمَّ ضمّا محمَّداً يُقبّلانه بِحنانٍ .

ماذا حدَثَ ؟؟

ثم قامَتْ حليمةُ إلى راحلتِها ، وقامَ الزّوجُ إلى ناقتِه ، ليعودا في الطَّريقِ الّتي سَبقَتْهُما إليهِ المرضعاتُ ، وَيا لهُ مِنْ أمرٍ عجيبٍ حقّاً! فإنَّ الحمارةَ الهزيلةَ والنّاقةَ الضّعيفةَ الهرمةَ ، قَد انْطلقتا الآنَ كالسَّهمِ الخارقِ، تَتسابقانِ في السَّيرِ ، وتَقطعانِ المَسافاتِ الطّويلةَ ، وإنّهما لَهما اللّتانِ أظهرتا مِنَ العَجزِ والوَهَنِ في القدومِ الكثيرَ الكثيرَ ، فَماذا جَرى لَهما الآنَ؟ ماذا حَدَثَ للضّعيفتينِ الهزيلتينِ الضّامرتينِ؟ ما لهُما الآن تَتسابقانِ وَتَلحقُ إحداهُما الأُخرى؟ يا لَلأمرِ الغرَيبِ ، أمرٌ لا يكادُ يُصدَّقُ !! وَحَليمةُ تَبتسمُ مُعجبةً ، وَزَوجُها يَكادُ يَفقدُ صوابَهُ مِنْ شِدَّةِ الدّهشةِ التي أصابَتْه ، بَعدَ أنْ رأىٰ ما رَآهُ مِنْ سرعتِهما وقوّتِهما!! .

اِرفقِي بِنا !!

وَبعدَ بُرهةٍ قليلةٍ ، كانَت المرضعاتُ خَلفَ حمارةِ حليمةَ وناقةِ زَوجِها.. وَهُنَّ لا يُصدِّقْنَ ما تراهُ كُلٌّ مِنهنَّ . وَنالَ العجبُ كلَّ واحدةٍ وَهي تَقولُ للأُخرى: أَوَلَيْسَتْ حمارتَها الّتي أتتْ بها؟ أليستِ النّاقةَ نفسَها التي كانَ يركبُها زوجُها؟! ماذا حَدثَ لَهُما؟ أَينَ هُزالُ الحمارةِ وضُمورُ النّاقةِ؟ ثُمَّ صاحتْ مِنهنَّ اثنتانِ قائلتينِ : ارْفقي بنا يا حليمةُ ، واطلُبي مِنْ حمارتِكِ التّخفيفَ في السَّيرِ ، هَلْ غَيَّرتِ حمارتَك العرجاءَ؟ أسْتبدلتِ لزوجِك بناقتِهِ ناقةً سريعةً تُسابقُ الخيلَ والرّيحَ؟ فَتبتسمُ حليمةُ ضاحكةً وتجيبُهنَّ : إنّها لحمارتي وإنّها لناقتُهُ . اقْترِبْنَ وانظرْنَ جيّداً، فتزدادُ دَهشةُ الجميعِ قائلاتٍ : لا واللهِ !! لا بُدَّ وأنَّ في الأمرِ شيئاً، ولا بُدَّ أنَّ لحليمةَ شَأناً !!

خَيْرٌ كَثِيرٌ

وتَصِلُ حَليمةُ إلى باديةِ بَني سَعدٍ ، فيكْثُرُ الخيرُ عَليها مِنْ كُلِّ جانبٍ، وكَأنَّ البَركةَ قَدْ نبعَتْ في دارِها وما حَولَها بشكلٍ لمْ تَعرفْه مِنْ قبلُ ، ولا تصلُ إليهِ يدُ إنسانٍ مِنْ عَملٍ أو فعلٍ ، إنَّهُ لخيرٌ يدرُّ عليها ، وَبركاتٌ تحلُّ عِندَها، وَغنماتُها تعودُ مِنَ المرعى وقدْ شَبعَتْ وامتلأَتْ ضُروعُها وبُطونُها ، ويغارُ الجميعُ منها ، ويحسدونَها على مَرعاها الخصبِ ، ويَلومُون رعيانَهم قائلين : ارعَوا في مكانِ رَعي غَنماتِ

حليمةَ!! فيُقسمونَ : لَقَد رَعينا هُناكَ وَما نـدري مِنْ أينَ يأتيها العُشبُ واللّبنُ ..

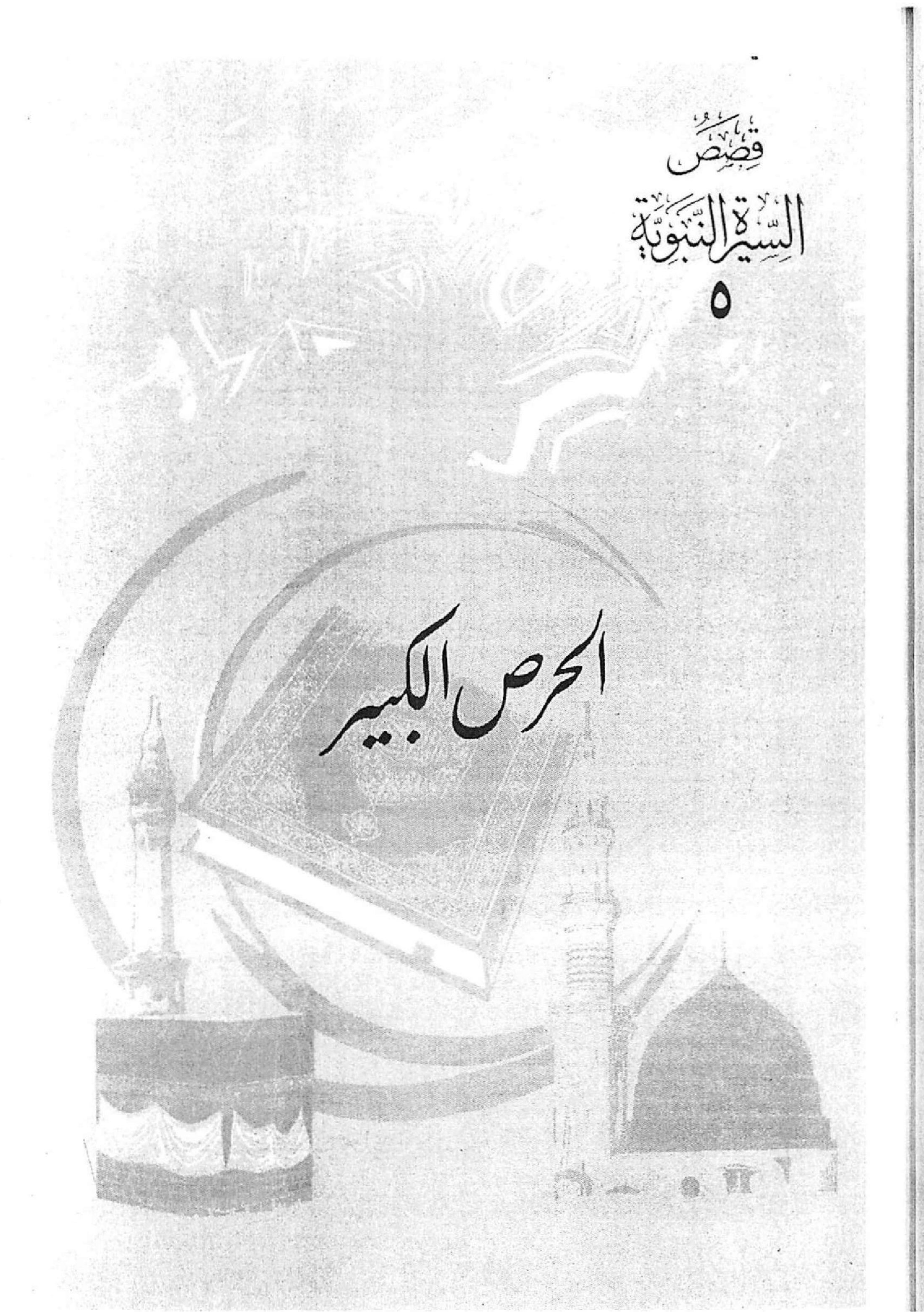
.. هٰكذا يـا أحبّتي بَقيَتْ حليمةُ عـامينِ كاملينِ وهي تُرضِـعُ مُحمَّداً الطّفلَ اليتيمَ الصّغيرَ ، وفي كُـلِّ يومٍ يزدادُ عجَبُها ، والخيرُ مـنْ حَولِها ، والبَركةُ بَينَ يَديها تَزدادُ أيضاً وتكثُرُ ..

سُرورٌ عَظيمٌ

وَسُرَّتْ حليمةُ بما أصبحَ عَليـهِ رَضيعُها محمّدٌ من الصّحّـةِ والعافيةِ ، والنّشاطِ الّـذي يَفوقُ كُلَّ الصِّغارِ .. مَـنْ يَراه يَحسبُهُ ابْنَ أربـعِ سَنواتٍ وَهُو لا يَزالُ ابْنَ سَنتينِ، وهٰذا ممّا يدخِلُ السُّرورَ بحقٍّ إلى قَلبِ المرضعةِ القانعةِ بطفلٍ يتيمٍ ، وتمنَّتْ لَو تَطـولُ أيّامُ رَضاعتِهِ وحَضـانَتِهِ ، ليبقىٰ الصّغيرُ عِندَهـا ولو طولَ العمـرِ حتّى لا تفارقَهـا الخيراتُ ، ولا تَنعدمَ مِنْ بيتِها البركاتُ والعجائبُ ، وَدعَتْ إلى اللهِ أنْ تقتنعَ أُمُّ محمّدٍ في مكّةَ برغبتِها في إبقاءِ الرّضيعِ بَعدَ فِطامِهِ عِندَ حَليمةَ...

هَلْ يا تُرى سَترضى آمنةُ وتُوافقُ على هٰذا الرّأيِ؟

هٰذا ما سَنعرفُهُ أيّها القارئُ الحبيـبُ في الصّفحاتِ القادمةِ من سيرةِ رسولِنا ﷺ..



عَوْدَةٌ إلى آمِنَةَ

عَلِمتُم في القصّةِ السّابقةِ أنَّ حليمةَ قَدْ دعَتْ ربَّها أنْ تُوافقَ آمنةُ على إبقاءِ محمَّدٍ في الباديةِ ، ووعدتُكُم في هٰذهِ القِصّةِ الجديدةِ أنْ أُعلمَكم ما حدثَ لَها بَعدَ دُعائِها للهِ ، وأُمنيتِها الحلوةِ .

إنَّ مِنْ عادةِ المرضعاتِ إرجاعَ الرَّضيعِ إلى أهلِهِ بعدَ عامين .. لِذا رَأَتْ حَليمةُ نَفسَها مُضطرةً للذّهابِ إلى مكّةَ ، والدُّخولِ على آمنةَ أُمِّ محمّدٍ ﷺ، ولَمّا وَصلَتْ إلى مكةَ ، دخلَتْ على آمنةَ حاملةً الطِّفلَ على يديها وهي أشدُّ ما تكونُ رغبةً في عدمِ وَضعِهِ وتركِهِ ، فقفزَتِ الأُمُّ فَرحةً ، وَحمدَتِ اللهَ على أنَّها رأَت ابنَها غُلاماً نامياً زَكيّاً ، كأنَّهُ فوقَ سنِّهِ وعُمرِهِ ، فأعطَتْ حليمةَ ما جادَتْ بِهِ نَفسُها ، وشكرَتْ لها صَنيعَها ، وَلمحَتْ في عينيها كَلاماً تُريدُ قولَهُ .. لٰكنَّ رُؤيةَ ولدِها أخّرَتِ الاستِفسارَ .

اِسْتِئذانٌ ورجاءٌ

وَبعدَ حوارٍ قصيرٍ بين الأمِّ والمرضِعةِ ، قالَتْ حليمةُ: أرجُو أنْ تَسمعي لي كلمةً صغيرةً أحبُّ الهَمْسَ بها ، هَل تَسمحينَ لي بذٰلكَ ؟ فهزّتْ آمنةُ رأسَها بالقَبولِ مُوافقةً مَعَ ابْتسامةِ الأمِّ ، وقُبلةٍ تَطبعُها على جَبينِ وَلدِها .. وتكلّمَتْ حَليمةُ قائلةً:

يا سَيِّدَتي : إنَّ وَلدَكِ هٰذا مُباركٌ إنْ شاءَ اللهُ ، وقدْ نَما وَشبَّ بِشكلٍ غيرِ عاديٍّ ، وَقَدْ يزعجُهُ وباءُ مكّةَ ، ولَعلّهُ سَينمُو في الباديةِ أكثرَ وأفضلَ وأحسنَ ، وَلوْ أرسلْتِهِ معي بعدَ إذْنِكِ إلى الباديةِ ، حيثُ الهواءُ النّقيُّ ، والجوُّ الجميلُ ، فسأكونُ لَكِ مِنَ الشّاكرينَ .. وَشعرَتْ آمنةُ بأنَّها مُسيّرَةٌ في جوابِها ، وكأنَّ اللهَ يأمرُها بالقبولِ والرِّضا لأمرٍ هامٍّ يؤثّرُ في نَشأةِ محمّدٍ ، لذٰلكَ قالَتْ : لكِ ما تريدينَ يا حليمةُ ، وهُو طِفلُكِ أينَما كانَ ، فَشكرَتْ حليمةُ لها فضلَها وعادَتْ بِهِ فَرِحَةً .

رُعْيانٌ صِغارٌ

وَرجعَ الرَّضيعُ سعيداً مَسروراً إلى الجوِّ الذي نَشأَ فيهِ ، حَيثُ أَلِفَ حَياةَ البساطةِ والحرّيةِ والانْطلاقِ ، وما كادَتْ قَدمُهُ تَدوسُ باديةَ بني سَعدٍ حتّى دَرجَتْ مُنطلقةً هنا وهُناكَ تدرجُ مَعَ الأطفالِ ، وَيَمرحُ ويَسرحُ في البطاحِ الواسعةِ المنْبسطةِ ، وتَركَتْهُ حليمةُ يَخرجُ مَعَ الرُّعيانِ الصِّغارِ، حيثُ تَرعى الأغنامَ ، وكانَتْ تُرافقُه الشَّيماءُ أُختُهُ الحاضِنةُ الرّاعيةُ ابنةُ حليمةَ ، تحملُه إذا تَعِبَ ، وتُظلُّهُ إذا اشْتَدَّ الحرُّ ، وتَتركُهُ يَهُشُّ على الخرافِ والنِّعاجِ بعصاً صغيرةٍ ، بينَما تَروحُ رجلاهُ الصَّغيرتانِ تَغوصانِ في طبقةٍ كثيفةٍ من الرِّمالِ النّاعمةِ ، فَيقعُ ثُمَّ ينهضُ ، ليعيدَ الوقوعَ بفرحةٍ أكثرَ ، ثُمَّ يَنتهي بهِ المطافُ إلى الظِّلِّ عِندَ الرُّعيانِ الصِّغارِ، يشاركُهم بناءَ البيوتِ الحجريّةِ الصَّغيرةِ في براءةِ الأطفالِ .. وأخيراً .. يعودُ مع الجميعِ فرحاً مَسروراً .

حِرصٌ كبيرٌ

وَصحيحٌ أنَّ محمّداً كانَ يخرجُ معَ الرُّعيانِ الصِّغارِ يَلهُو ويمرحُ ، ويَفرحُ باللَّعبِ والتنقُّلِ ، إلاّ أنَّ حليمةَ كانَتْ مِنْ دونِ الأمّهاتِ ، لا تَرغَبُ في فِراقِ الرّضيعِ الصَّغيرِ ، وما يكادُ يخرجُ حتّى تحسبَ الحساباتِ، وتَضَعَ الاحتمالاتِ ، لِذٰلك كانَتْ تخشى عليهِ النَّظرَ مِنَ الأعيُنِ والتقلُّبَ في الحرارةِ والطَّقسِ ، ومعَها حقٌّ في حِرصِها الكبيرِ ، وَخَوفِها وخشيتِها على محمَّدٍ الصَّغيرِ ، فَقدْ رَأَتْ مِنْ بَركَتِهِ ما زادَها تَعلُّقاً بِهِ وَمَحبّةً لَهُ وحِرصاً عليهِ، ولا عَجَبَ إذا كانَتْ تلاحقهُ عَنْ كثبٍ، لِترى بعينِها إذا كانَ واحدٌ مِنَ النّاسِ يَحسدُها عليه ، أو يُريدُ خطفَه منها ، بَعدَ ما رأَت عجائِبَهُ ، وكثيراً ما كانَتْ حليمةُ تَلومُ أختَهُ الشَّيماءَ على تَأخُّرِها في الرُّجوعِ بِهِ إلى البيتِ ، وَلا سِيّما في أيّامِ الحرِّ الشَّديدِ الذي يَصعُبُ على الصِّغارِ تحمُّلُهُ .

أَرْبَعُ سِنين

وَبقيَ الرَّسولُ في صِغَرِهِ عامينِ آخرينِ بَعدَ الفِطامِ ، بَلغَ فيهما السَّنةَ الرّابعةَ مِنْ عمرِهِ ، وَأَصبحَ يعرفُ الكثيرَ مِنْ حياةِ الأعرابِ ، ولُغتِهم ، ولباسِهم، وَلَعِبِ أطفالِهِمْ هُناكَ ، ولقدْ لازمَهُ خَوفُ حليمةَ وَحرصُها عليه ، وَرافقهُ فَزَعُها وجَزعُها ومُراقبتُها الدّائمةُ لهُ ، والسُّؤالُ عنهُ كُلَّما سَنحَتْ لَها الفُرصةُ لا تستطيعُ فِراقَهُ ، وكُلّما زادَ عُمرُهُ يوماً ازدادَ تعلُّقُها بِهِ وَحُبُّها لَهُ ، وكأنَّها مُخصَّصةٌ لرعايتِهِ وحضانتِهِ ، بِناءً على وصيّةٍ ربّانيّةٍ

تَشعرُ بثقلِها ومحبّتِها معاً ، والأجملُ مِنْ هٰذا أنَّها كانَتْ تُوصي بِهِ الصِّغارَ والكِبارَ كُلَّما خَرَجَ مِنْ دارِها ، تُحَذِّرُهم أنْ يتهاونوا في رعايتِهِ وحِفظِهِ ، وَتطلُبُ منهمْ أنْ لا يذهبُوا بِهِ بعيداً عنِ الحيِّ .

أربعُ سنواتٍ قضاها ﷺ على هٰذه الحالِ مِنَ الحبِ والرِعايةِ والعطفِ والحنانِ والتوصياتِ مِنْ حَليمةَ .

حدثٌ خَطيرٌ

وكأنَّ قلبَ حليمةَ كانَ يحدّثُها بأنَّ التهاونَ سَيُحدث مَكروهاً لمحمّدٍ الصَّغيرِ ، لا سيّما في باديةٍ لا نهايةَ لها ، يَسهُلُ فيها الشُّرودُ والضَّياعُ ، ففيها الحريّةُ الواسعةُ والانطلاقُ الحرُّ ، ومَتاهاتٌ في الرِّمالِ وفُسحةٌ في الآفاقِ . وحقّاً لقدْ حَدثَ فيما يبدُو ما خافَتْ منه حليمةُ ! فبينما هي ذاتَ يوم في دارِها تقومُ ببعضِ شؤونِها إذْ أقبلَ ولدُها الذي رَضعَ مَعَ محمّدٍ في صِغَرِهِ ، ودَخلَ البيتَ وهو يصرخُ ويصيحُ: أمّي . . أمّي . . لقدْ ماتَ أخي المكيُّ ، لقدْ قَتلوا أخي القرشيَّ يا أمّاه ، الحقيه!! إنّه مُلقىً عَلى الأرضِ..

وَكادَتْ حليمةُ الأمُّ أنْ تَقَعَ مغشياً عليها منْ هَولِ الصَّدمةِ . فَيا للأمرِ الخطيرِ المحزنِ ؟! هَلْ صحيحٌ أنّهُ قدْ قُتِلَ وَماتَ ؟ الأمرُ معقولٌ، فشدَّةُ الحذرِ ، قدْ تُوقعُ في الأمرِ المكرُوهِ أحياناً !!

إنَّهُ من السَّماءِ

وَوصلَتْ حليمةُ وَهي لا تكادُ تُصدِّقُ ، إلى حَيثُ دَلَّها ولدُها ، وسَمعَها النّاسُ تصيحُ بأعلى صَوتِها حينَ خرجَتْ مِنَ الدّارِ تُنادي : يا ولدي ، يا يتيماهُ !! يا وَحيداهُ!! لقدِ اسْتضعفُوكَ يا صغيري . واقتربَتْ منه لترى وجهَهُ مُنتقعاً لَونُه فصاحَتْ بِهِ: أأنتَ حيٌ يا ولدي ؟ فقامَ محمّدٌ مِنَ الأرضِ يَنظُر أمَّهُ حليمةَ وهي تصيحُ منْ جديدٍ : أأراكَ حيّاً بعدُ يا يتيماه ؟ إليَّ يا صغيري، ماذا حدثَ لكَ؟ أجرى معكَ مكروهٌ حتّى قالوا عنك: إنّكَ قدْ قُتِلتَ ؟ فَأشارَ بيدِهِ إلى السّماءِ !! فبكَتِ الأمُّ وضمَّتْهُ إلى صَدرِها، وأدركَتْ أنَّ أمراً عجيباً آخرَ قدْ حدثَ لمحمّدٍ ، ولٰكنّه على درجةٍ مِنَ الخطورةِ جَعَلَ ولدَها الآخرَ يرجعُ مستغيثاً صارخاً: (لَقَدْ قتلوا أخي القرشيَّ يا أماه ..) ونظرَتْ حليمةُ إلى السَّماءِ، علَّها تفهمُ شيئاً مِنَ الأمرِ !!

أَعْمالٌ غريبةٌ !!

لَقَدْ نزلَ ثلاثةٌ مِنَ السّماءِ ، ومعهم طِستٌ مِنْ ذهبٍ ، مملوءٌ بالثّلج ، فحملوا محمّداً مِنْ بينِ الصّغارِ ، فهربَ الآخرون بعيداً عَنْ مكانِ اللّعبِ، وعَمدَ أحدُ الثّلاثةِ إلى محمّدٍ فأضجعَهُ على الأرضِ بلطفٍ ، وشَقَّ صدرَهُ دُونَ أنْ يشعُرَ محمّدٌ بألمٍ أبداً ، ثُم أخرجَ أحشاءَ بطنِه وغَسلَها بالثّلجِ ، ثُمّ أعادَ الأحشاءَ مكانَها .

وقامَ الثّاني فأخرجَ القلبَ وشقَّهُ ، وأخرجَ مِنْهُ قطعةً سوداءَ رَماها جانباً ، وخَتَمَ القلبَ بخاتمٍ كلُّه نورٌ ، ثمُ قامَ الثّالثُ وأمرَّ يدَهُ على مكانِ الشّقِّ في القلبِ والصّدرِ، فالتأمَ الشّقُّ دونَ ألمٍ أيضاً ، وأخيراً قبّلوهُ وقالوا له : لا تخَفْ ، يا حبيبُ ، فَلو علمْتَ ماذا يُرادُ بِكَ من الخيرِ ، لَفرحَتْ نَفسُكَ ، وقَرّتْ عيناكَ .

تجمّعُ القَوْمِ

وَبسُرعةٍ فائقةٍ تجمَّعَ أَهلُ الحيِّ إثرَ استنجادِ الصِّغارِ بهم ، ولمْ يَبقَ في الحيِّ صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا وأتى يُريدُ الاطِّلاعَ ، فالأمرُ غَريبٌ يَستحقُّ الرُّؤيةَ، والحادثُ خَطيرٌ لمْ يَسمعُوا بمثلِهِ ، على الرّغمِ من تَوقُّعِهم غرائبَ من المعجباتِ ، رأوْا منها ما حَيّرَهُم ، ولَمْ يَتحملْ أكثرُهم الموقفَ الجديدَ فأفلتَ الزِّمامُ مِنْ لِسانِهِمْ وقالُوا : لقدْ أصابَ الغُلامَ جُنونٌ ومرضٌ ، منْ أجلِ ذٰلكَ وَقعَ على الأرضِ ، وأصبحَ يخطئُ في تصرّفاتِهِ ، فَخافَ الصِّغارُ منْ حولِهِ .

وَما أنْ سَمعَهم محمّدٌ الصغيرُ ، حتى صَحّحَ مَفْهُومَهُمْ كَمَنْ يقولُ : (لا يا ناسُ إنَّ عقلي معي ، وإرادتي سليمةٌ وقلبي صحيحٌ)، وبَيَّنَ لَهم بهٰذا أنهُ غيرُ مصابٍ بجنونٍ ولا مرضٍ، ففرحتْ حليمةُ ، وفرحَ زوجُها وقالَ : اتركوه ياناسُ وابعدوا عنهُ، أما سمعْتُم جوابَهُ ؟ ألا يكفيكُم هٰذا دليلاً؟ . اذهبوا عنهُ .

إلى الكاهنِ

لكنَّ القومَ أصرُّوا على نكرانِ كلامِهِ، وعلى أنَّ محمّداً الصّغيرُ مريضٌ ومجنونٌ، وطالَبوا أنْ يُؤخذَ الطّفلُ المكّيُّ إلى الكاهنِ الموجودِ بالقربِ منَ الحيِّ، حتّى يَستفسِروا منهُ عنِ الحادثِ، ومَنَعَتْهُم حليمةُ أوّلَ الأمرِ، وأرَتْهُم مكانَ الشقِّ والتئامِ الجرحِ الذي مازال ظاهراً على جَسدِ ولدِها الكريمِ، لكنّها اضطُرَّتْ في آخرِ المطافِ أنْ تستجيبَ لأقْوالِ النّاسِ مِنْ حَولِها، وحملَتْهُ بِيدِها إلى الكاهنِ، ودَخلَتْ عليهِ، والنّاسُ مِنْ ورائِها كُلُّهم يرغبُ في المعرفةِ والاسْتطلاعِ لحقيقةِ هذا الغُلامِ الصّغيرِ.

وتَعَجَّبَ الكاهنُ للضّجّةِ التي أحْدثَها الحادثُ الخطيرُ، وسَألَ عنِ السّببِ، وطلبَ الهدوءَ حتّى يسمعَ مِنَ الصّغيرِ نَفسِهِ.

اُقْتُلوهُ ؟!..

وبانتباهٍ شديدٍ سَمعَ الكاهنُ كلامَ محمّدٍ، وكادَتْ عيناهُ تَنفجِرانِ، وأُذناهُ تَخرجانِ منْ مَكانِهما منْ هَولِ ما يَسمعُهُ، لا يكادُ يصدِّقُ، وصاحَ بأعلى صَوتِهِ: اكْشفُوا عنْ جسدِ الصَّغيرِ !؟ واقْتربَ منْ جَسدِهِ ليرى خاتمَ النبوّةِ بين كتفيهِ، فاشتدَّ صياحُهُ: يا للعجبِ..!! هٰذا ما كُنتُ أنتظرُ مَعرفَتَهُ، لقدْ صدقَ ظنّي، وصحَّ حَدسي واعْتقادي. أُنبهُكم أيُّها العربُ، أنَّ هٰذا الغلامَ سيقلبُ حياتَكُمْ في كبرِهِ، وسيأتيكم بغرائبَ وأفكارَ لمْ تَسمعوها مِنْ قبلُ، فاعملُوا بنصيحتي،

واقتلوهُ فوراً دُونَ تردّدٍ، هَيّا يا أهلَ الحيِّ، اقتلُوا الصّغيرَ قبلَ أنْ يُغيّرَ عُقولَكُمْ ويُسفِّهَ عقولَ آبائِكم وأجدادِكم، هيّا ولا تقِفوا هٰكذا حائرين مَدهوشين، يَتملَّكُكُم العجبُ، وتأسرُكم الحيرةُ.. هيّا.. هيّا اقتلوهُ!!؟

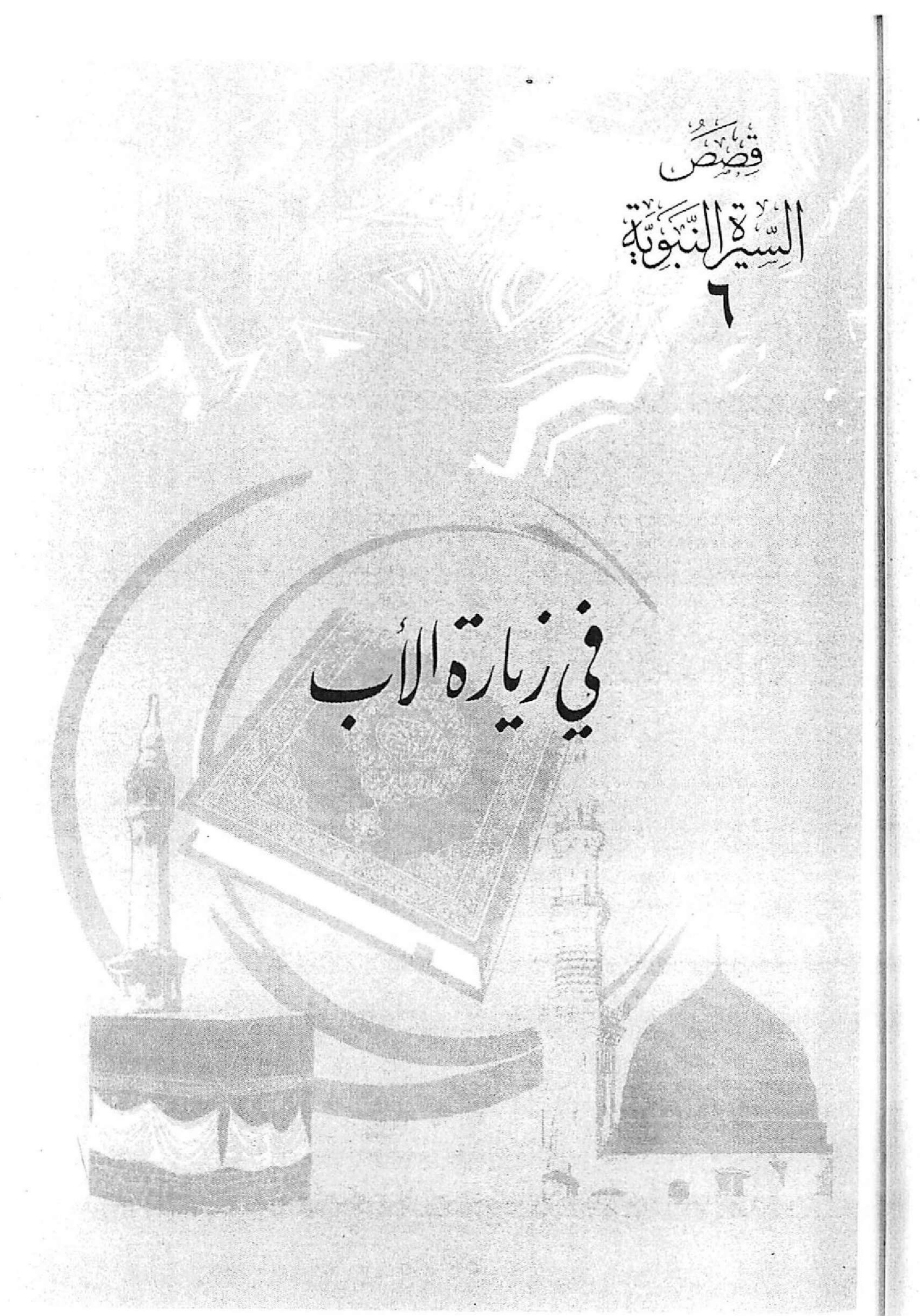
مَخاوِفُ حليمةَ

ولَمْ تَدَعْ حليمةُ مجالاً لأحدٍ في أخذِ محمّدٍ، وتَنفيذِ نصيحةِ الكاهنِ، واستغاثَتْ صارِخَةً: اتركوه.. !! تبّاً لكمْ إنْ فعلْتُم، وإنَّ الكاهنَ لَهُو المجنونُ والسّفيهُ، والذي يشكُّ بعقلِ ولدي هُوَ مَنْ يَستحقُّ القتلَ. اتركْهُ أيُّها الكاهنُ، وابعدْ عنا، واطلبْ لنفسِك مَن يقتلُك، فأنا لستُ بقاتلةٍ ولدي وحبيبيَ الصّغيرِ.

ثمَّ عادَتْ بهِ هاربةً إلى بيتِها وهي تخشى أنْ يَلحقَ بها الكاهنُ أو أحدٌ منْ أهلِ الحيِّ ليقتُلَ ولدَها، ويفتكَ بِهِ، وأخذَ خوفُها يَزدادُ يوماً بعدَ يومٍ، وهَلَعَ قلبُها، وخشيَتْ أنْ تُعادَ الكرَّةُ فيرجعَ الثّلاثةُ الذين شقُّوا صدرَ محمّدٍ الصّغيرِ، وأخذَتْ تبحثُ الأمرَ مع زوجِها وتضعُ الحلولَ معهُ لمنْعِ وقوعِ قتلِ الغلامِ.

لا تَخافا على ولدي

واتّفقَتْ مع زوجِها أخيراً على أنْ يَرجعا بالغلامِ إلى أُمِّهِ قبلَ أنْ يحدثَ لَهُ مكروهٌ منْ شِدّةِ تحامُلِ النّاسِ على بيتِ حليمةَ، حيثُ كانَتْ حليمةُ وزوجُها مانعاً من قَتلِ محمّدٍ، وما هي إلاّ ثلاثةُ أيّامٍ حتّى كانَ محمّدٌ في بيتِ والدتِهِ آمنةَ بمكّةَ.



واسْتغربَتْ آمنةُ عملَ حليمةَ التي كانَتْ حريصةً كلَّ الحرصِ على إبقاءِ محمّدٍ عندَها في الباديـةِ ، وأخذتْ تستفسرُ منها بعدَ أنْ رحَّبتْ بها عنْ سرِّ الأمرِ والعـودةِ ، فقالَتْ حليمةُ: أحْبَبْنا أنْ نـرُدَّه إلى أهلِهِ ، وقدْ أنهيْنا مهمَّتَنا وأدَّيْنا ما علينا ، قالَتْ آمنةُ : لا أعتقدُ أنَّ هذا هُو السّببُ ، لا تخافي وحَدِّثيني أنتِ وَزَوجُكِ بما جَرى حَقيقةً ، هيّا اصدُقاني في أمرِ وَلَدي ، ولنْ أودّعَكُما قبلَ أن تخبراني بالأمرِ الصَّحيحِ .. هيّا أرجُوكُما .. ما السّببُ ؟ تكلَّما ولا تخافا .

إنَّهُ لَعَجيبٌ . ؟!

ولمْ يَستطعِ الزَّوْجُ أنْ يكتُمَ الخبرَ ، ورأَتْ حليمـةُ نَفسَهـا مُضطـرةً للكلامِ.. وَما هي إلاّ بُرهةٌ يسيرةٌ حتى فَهِمَت آمنةُ الحكايةَ كلَّها منهما ، فهـدَّأَتْ مِـنْ رَوعِ حليمةَ وزوجِهـا ، وحَكَـتْ لَهُما مـا حدثَ مِـنْ أمرِ الصَّغيرِ أيّـامَ الحملِ والـولادةِ ، وقالـتْ : إنَّ ولدي لَـذُو شأنٍ عظيـمٍ ، وأَشكرُلكما عنايتكما ورعـايتكما لَهُ ، واتْركاهُ الآنَ إنْ شِئْتُما ، ولـنْ ينالَهُ الشّيطانُ بأذىً ولا جُنونٍ ولا مَرضٍ ، وإنَّ اللهَ سَيحميهِ ، فمهمّتُهُ لمْ تتمَّ بعـدُ ، وستسمعانِ إنْ عِشتُما بحقيقـةِ وَلَـدي، وأشكـرُلكما مرّةً ثـانيـةً ، وَسَتَبْقيانِ عندَنا أيّاماً ثُم ترحلان ، بعد أنْ يبرّكُما جَدُّ ولدي ، ويُبادلكم المعروُفَ بأحسنَ مِنْهُ . وأنزلَتْ حليمةُ الـولدَ عَنْ يدِها وهي حزينةٌ على أنّها ستفارقُه ، فربّما يفارقُها الخيرُ والعطـاءُ والبركةُ بفراقِهِ ، وإنّها لمُكْرَهةٌ على ذلك .

فَرْحةُ آمِنَةَ

هَلْ أعجبَتْكم القصّةُ السّابقةُ يا أحبّائي؟ وهلْ أنتم ممَّنْ يُحبُّ القَصصَ الحلوةَ عنْ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ ؟ سَتُجيبونَني : نعمْ .. وها أنذا معكُمُ الآنَ .. أُتابعُ الحكايةَ الجميلةَ ... ولقدْ وَصلْنا كما تَعلمون إلى حَليمةَ الّتي أعادَتْ محمّداً الصَّغيرَ إلى آمنةَ أمِّهِ ، رغبةً في إنْقاذِهِ مِنَ القتلِ ، بَعدَ أنْ أشارَ الكاهِنُ بقتلِه . وأنتم تَعرفون جيّداً أنَّ الأُمَّ عندَما يَغيبُ عنها ولدُها ثُم يَعود بَعدَ فراقِ أربعِ سنواتٍ ، فإنَّها ولا شكَّ ستفرحُ فرحاً شَديداً ما بَعدَه فَرَحٌ ، لماذا ؟ لأَنَّهُ ولدُها ، والأُمُّ تحبُّه ، ففَرحةُ آمِنةَ لا تعادِلُها فرحةٌ ، ولا سيّما أنَّ ابنَها قَدْ نَجا مِنَ القتلِ ، وأبُوه قَدْ نَجا قبلَه مِنَ الذَّبحِ في شَبابِهِ، وكِلاهُما قدْ نَجا لِغايةٍ شريفةٍ عظيمةٍ.

مثلُ الغريبِ

وإذا ما تابَعْنا قراءةَ الأسطُرِ ، فسنعرفُ بِحقٍّ، لماذا كانَتْ رِعايةُ اللهِ تُحيطُ محمّداً، وتُنقذُه مِنَ القتْلِ ؟ وفي هٰذه المرّة سنَرى محمّداً يَعيشُ في بيئةٍ جَديدةٍ في مكّةَ . لقد عادَ إليها بعدَ غِيابِ أربعِ سِنينَ ، وظلَّ مدّةً يَشعرُ بالغرابَةِ ، فكُلُّ شيءٍ مِنْ حولِهِ جَديدٌ لا عهدَ لَهُ بِهِ ، أيْنَ اللّعبُ في الباديةِ؟ أينَ المَراعي هُنا؟ وأينَ الشَّيماءُ؟ بَلْ أينَ حليمةُ وأُخوه الذي رَضعَ معَهُ ؟ وأيْنَ الرُّعيانُ الصِّغارُ ؟ ...

إنَّ كُلَّ هٰذا مفقودٌ في مكّةَ ، لا يَرى خِياماً ولا رِمالاً ولا آفاقاً بعيدةً ،

بَلْ يَرى أبنيةً متلاصِقةً ! مِنْ أجْلِ هٰذا بدأَ الغلامُ الصَّغيرُ يحسُّ بشيءٍ مِنَ الوحشَةِ تلازِمُهُ ، ولَقد انْقَطعَ عنهُ المرحُ ولذَّةُ اللعبِ ، إنَّها مدّةٌ قَدْ تَطولُ رَيْثما يتعوَّدُ الصَّغيرُ على البيئةِ الجديدةِ ..

حَنانٌ وَحُبٌّ

ولكنْ قدْ يقولُ القائلُ منكُم : ألا يُحبُّ الصَّغيرُ أنْ يَعيشَ مَعَ أهلِهِ ؟ معَ أُمِّهِ وجدِّهِ وأعمامِه ؟ مَعَ أهلِ حيِّهِ الذي وُلِدَ فيهِ؟ وأجيبُكمْ : بلى .. ذٰلكَ عندَما يألَفُ ما حَولَهُ مِنْ جَديدٍ .

وهٰذا ما كانَ مِنْ أمرِ محمّدٍ الذي بَدأَ يتعوَّدُ حضْنَ أمِّهِ الحبيبةِ آمنةَ حيثُ الحَنانُ الذي لَيسَ مثلَهُ حنانٌ في الأرضِ ، منْ أُمٍّ تحبُّهُ حُبّاً لا يحتاجُ إلى بيانٍ ، إنَّ محمّداً الآنَ يعيشُ بَينَ أهلِهِ الحقيقيّينَ مِنْ أُمٍّ وَجدٍّ وعمٍّ وخالٍ وجيرانٍ وأقاربَ ، إذاً فسيعطفُ عليه كُلُّ مَنْ لَهُ صِلةُ قرابةٍ بِهِ ، وسيحبُّهُ حَتماً لأنَّه مولودٌ جديدٌ في الأسرةِ والعائلةِ ، سيَكبُرُ أمامَ أقربائِهِ ، وسَيشبُّ بينَهُمْ ، وسَيحيا معَهُم ، فَلِمَ لا يحبُّونَهُ ، ويَحنونَ عليهِ، ويمتزجونَ معهُ؟

تعرُّفٌ ورعايَةٌ

وكَبِرَ محمّدٌ شيئاً فشيئاً ، وأصبحَ النّاظرُ إليهِ يظنُّهُ فتىً وشاباً في مُقْتَبلِ الحياةِ معَ أنَّ نموَّهُ يتّجهُ الآنَ نحوَ السّادسةِ مِنَ العمرِ .. هٰذا الطّفلُ يتعرَّفُ رويداً رُويداً على مَعالمِ وأماكنِ مكّةَ ، هُنا البيتُ الحرامُ ، وفيهِ

الكعبةُ ، ويأتيهِ الحجّاجُ كلَّ عامٍ : يَطُوفونَ ، ويأكلونَ ، ويشربونَ مِنْ زَمزَمِ النّبعِ الدّائمِ ، ومِنْ مكّةَ رَأى القوافلَ تتّجهُ إلى الشّامِ صيفاً ، وإلى اليمنِ شتاءً ، وبالقُربِ مِنْ دارِه تقعُ دارُ النّدوةِ التي يجتمعُ فيها كِبارُ قُريشٍ وتُقامُ على أرضِها الأفراحُ والأتراحُ ، وتُبحثُ أمورُ الحربِ والسِّلمِ .

إنَّ كُلَّ ما في مكّةَ قدْ أخذَ ينطبعُ بصُورتِهِ في عقلِ النّاشئِ الواعي الّذي ينظرُ، ويفكّرَ ، ويستوعبُ بعقلِهِ كُلَّ ما يَراهُ وما يَسمعُهُ ، دُونَ أنْ يفلتَ مِنْ ذاكرتِهِ شيءٌ ممّا يجري معهُ .

.. إلاّ الأصنامَ

لٰكنَّ شَيئاً واحداً لمْ يجدْ لهُ إلى نَفسِهِ سبيلاً ، ولمْ يَستطعْ أنْ يدخُلَ إلى قلبِهِ ، أو يأنَسَ إليهِ ، هلْ تعرفونَ ماهُو ؟ أَعيدُوا قراءةَ عنوانِ هٰذه الصّفحةِ.. إنَّهُ الأصنامُ المصنوعةُ مِنَ الحجارةِ ، والّتي كانَ أهلُ مَكّةَ يعظِّمونَها ، ويتقرَّبونَ مِنها ، هٰذه الأصنامُ هي الّتي لَمْ تَدخُلْ إلى فُؤادِ حَبيبِنا مُحمّدٍ ، (قولوا : ﷺ) .

حَقّاً : إنَ مُحمّداً لَيستحقُّ هٰذا الدُّعاءَ ، لأنَّهُ لمْ يُحبَّ الأصنامَ، وأَراكُم تتذكّرونَ مَعي النَّصيحةَ التي نصحتُ لكم بها سابقاً ، وهي أنَّهُ كلمّا مرَّ معنا ذكرُ مُحمّدٍ علَينا أنْ نَقولَ : ﷺ ... حتّى ولو لمْ أكتبْها لكم .

كَمْ هو جميلٌ أنْ يفكِّرَ الإنسانُ بعقلِهِ مِنْ صِغَرِ سنِّهِ ، حتّى لا يقعَ في عبادةٍ خاطئةٍ للأصنامِ أو غيرِها من الآلهةِ المزيَّفةِ .

كُرْهٌ شَديدٌ

نَعَمْ يا إخْوتي ، لقدْ نَفَرَ محمّدٌ مِنَ الأصنامِ نُفوراً شَديداً ، ولمْ يشاركْ قَومُهُ في عبادَتِها ولا في تَعظيمِها، ولمْ يرغبْ يوماً مِنَ الأيامِ في الدُّخولِ إلى مَعبدِ صَنمٍ تعافُهُ النَّفسُ الصّافيةُ .

إنَّ عقلَهُ متفتِّحٌ ، ويزدادُ تفتُّحُه على هٰذه الأمورِ التي يفعلُها قومُهُ وأهلُ مكّةَ ، وإنّهُ لعجبُ أمرُهُمْ! كيفَ يعبدونَها وهي حجارةٌ لا تَردُّ عليهِمْ ، ولا تُطعمُهُمْ ، ولا تَسقيهِم ، ولا تَسمعُهُمْ ، ولا تبصِرهُمْ ، ولا تضرُّهمْ ، ولا تنفعُهُمْ في شيءٍ!!؟.

وأَصرَّ محمّدٌ علىٰ تَركِ عِبادَةِ الأصنامِ ، وعَدمِ مشاركةِ الأهالي والعابِدينَ لَها ، وظنَّ الآخرونَ أنَّ عقلَهُ صغيرٌ لما يدركْ بَعْدُ ، وأنَّ عمرَهُ لا يساعدُهُ على فهمِ عِبادَةِ الأصنامِ، وكأنَّ معرفَةَ سخفِهِمْ أمرٌ صعبٌ وعسيرٌ ، لا يسهلُ على الصّغارِ اكتشافُهُ !!؟.

زِيارَةُ يَثْرِبَ

وحينَ بلغَ السّادسَةَ مِنْ عمرِهِ ، أحبَّتْ أُمُّهُ أنْ تذهبَ بِهِ لزيارةِ يثربَ حيثُ دُفِنَ أبُوه هُناكَ مِنْ سِتِّ سنواتٍ ، ومحمّدٌ لا يزالُ وقتَذاكَ جنيناً في بَطنِ أُمِّهِ ، وصحبَتْهم في هذهِ الزِّيارةِ جاريةُ والدِه ، واسمُها بركةُ أُمّ

أيمنَ، ووصلَ الثَّلاثةُ إلى يَثْرِبَ ، واستقبلَهم أخْوالُ عَبدِ اللهِ ، وأحْسنوا ضيافتَهُمْ.

وهُنـاكَ .. أقامَ (مُحمّدٌ) شهـراً مع والـدتِـهِ ، تعـرّفَ فيه على معـالمِ المدينةِ، واجْتمعَ مَعَ كثيرٍ مِنْ أطفالِها ، ورأى أنَّ الأطفالَ هناكَ يتَّصفون برقَّـةِ النَّفسِ ولَطافةِ المعاملـةِ، وحُسنِ المعاشرةِ ، وسُرَّ كثيراً بـالتَّعرُّفِ عليهم ، وأحبَّهُ الآخـرونَ لِوداعتِه وخُلقِه وأدَبِه، وأحبُّـوا أنْ يَبقىٰ معهُم محمّدٌ ، يلعبونَ ويمرحون إلى جانبِه .

صُورَةٌ جميلَةٌ

وَهٰؤلاءِ الصِّغـارُ .. كانوا يَذهبـون بِهِ إلى أحياءِ المدينـةِ ، فيرى محمّدٌ فيها أجملَ البسـاتينِ ، وأحلى الحدائقِ ، يَفرحُ بمـرأى شَجراتِ النَّخيـلِ المصْطفَّةِ على أطرافِ البَساتينِ الخضراءِ ، وإذا ما دَخـلَ المزارعَ الحلوةَ كـانَ يرى فيهـا منـاظِرَ خـلاّبةً بِما تَحويـهِ مِـنَ الثِّمارِ الطَّيِّبةِ والأغصـانِ المحمَّلةِ ، والينابيـعِ الجاريةِ ، ذاتِ الماءِ العذبِ ، وبقيتْ هٰـذِهِ الصُّورةُ الجميلةُ مَزروعةً في نَفسِه، حَتّى لكأنَّ اللهَ قدْ عرَّفَهُ مِنْ صِغرِه على أناسٍ في مِثلِ سنِّهِ ليجتمعَ بِهِمْ غداً إذا كَبِرَ ، ودَلَّـه على أماكنَ رائعةٍ في الجمالِ والمعشرِ والمعاملةِ ستُفيده إذا ما استلمَ مهمَّتـه الغاليةَ العاليةَ في المستقبل.
أليسَ في هٰذا عنايةٌ وتربيةٌ ربّـانيّةٌ تحيطُهُ وتحوطُهُ أينما حلَّ وأنّى سارَ ؟ .
إنّكمْ قَدْ لاحظْتُم هٰذا يا أحبّائي .. تعالَوا الآن نتابعِ القصّةَ ..

قَبْرُ الأبِ

إنَّ محمّداً مَـعَ أُمِّهِ آمِنةَ في يَثربَ الآن ، والغـايةُ مِنْ زيارةِ يثـربَ هٰذهِ المرَّةَ يا إخـوتي كانَـتْ في ذِهنِ الأمِّ : (زيـارةَ قَبرِ عبدِاللهِ زوجِهـا ووالدِ ابنِها) . وبِما أنَّها قدْ قَضَـتْ أيّاماً في يَثربَ ، فقـدْ آنَ لَها أنْ تزورَ القبرَ ، وسَوفَ تكونُ هٰذهِ الزِّيارةُ معَ ولَدِها محمّدٍ الصَّغيرِ ابنِ السَّنواتِ الستِّ، ولا شَكَّ أنَّـهُ سيتعلَّقُ بها إذا مـا هِي خرجَـتْ مِنْ بيتِ أخْـوالِهِ لـزيارةِ القَبرِ ، وهٰذا ما حـدثَ ، ولا شَكَّ أنهُ بكىٰ عنـدما وَصَلَ مَعَ أُمِّـه الّتي بكَتْ قَبْلَ الـوصُولِ ، وبكاءُ الأُمِّ سيؤثِّرُ في طِفـلٍ مثلِ محمّدٍ ، ويستثيرُ عاطفةَ حُزنِه ، وستذرفُ الدُّموعُ منْ عَينيه أمامَ القَبرِ ، لا سيَّما إذا عَرَفَ أنَّ القبرَ هُـو قَبرُ والـدِهِ ، ولا بُـدَّ أنّـه سيَسْـألُ الكثيرَ عَـنْ هٰـذا الأبِ المجهولِ لديهِ ، فَهلْ يا تُرى سَتجيبُهُ أمُّه عَنْ هٰذه الاسْتفساراتِ؟

مَعْنَى اليُتْم

إنَّ البُكاءَ وَمَنظرَ القبرِ قَدْ جَعَلا محمّـداً يَذوقُ ولأوّلِ مرَّةٍ مَرارةَ اليتمِ وفقدانِ الأبِ عِند وَلَدٍ لم يَرَ أباه مُطلقاً ، ولأنَّ البكاءَ ومنظرَ القبرِ أيضاً قَدْ جَعلا محمّداً يَذوقُ ولأوّلِ مرةٍ لَذْعَ الحزنِ في قلبِه وفُؤادِه ، حِينَ رأى النِّساءَ يواسينَ أُمَّهُ بصوتٍ يَخنقُهُ البكاءُ، والرِّجالَ يعطفونَ عليهِ بشكلٍ خاصٍّ.. إنَّها لـوقْفةٌ تلفتُ ذهنَ الطِّفـلِ الذي أثبتَ ذكاءَهُ في مـواقِفَ سابقةٍ ، وإنَّها لتدفعُهُ إلى التَّساؤلِ بحسٍّ مرهَفٍ ، وعاطفةٍ رقيقةٍ ، حَتّى

ولـوْ موّهَ الكِبـارُ الحقائقَ فـإنَّهُ لا بُـدَّ أنّه سيعـرفُ قريبـاً أو بَعيداً مِنَ الأطفالِ الـذين سيحكُون له مـا يَسمعونَه مِنْ أهليهـم وذَويهم.. ولعلَّ الحزنَ الذي ذاقَـهُ في الزِّيارةِ يـؤهِّلُهُ لموقـفٍ أصعبَ بعدَ قليـلٍ حتّى لا يتفاجأَ ولا يُصْدمَ ، ويكُونَ قَدْ تَعوَّدَ على مثلِ هٰذا الموقِفِ .

وَفاةُ الأُمِّ؟!..

وَتركَ محمـدٌ القَبرَ مع أُمِّـه ، ليُعلنَ في نِهايـةِ الأمرِ استعـدادَهُ للعودَةِ حسبَ أوامرِ الأمِّ الحنونِ .. وكأنَّ هٰذهِ الزيارةَ قَدْ أعطَتْ للصَّغيرِ دَرساً في معرفَـةِ الطَّريقِ ، فَـربَّما لا تأتي أُمُّه مَعَهُ مـرةً ثانيةً ، وسـارَ الاثنانِ في الطّريقِ إلى مكّـةَ، وَما أنْ قَطعتِ الأُمُّ بولَـدِها مَسافةً قليلـةً ، حتّى كانَ الحادثُ المؤلمُ ينتظرُها ، فعندَ قريةِ (الأبواءِ) ، كانَ حُزنُها على زَوجِها قدْ أخذَ مأخـذَهُ واستحكَمَ عَلى الرّوحِ والجَسَدِ ، ولَمْ تَسْتَطعْ آمنةُ وقـوفاً بلْ هَوَتْ على الأرضِ تُصـارعُ نِهايَتَها السَّريعـةَ ، وتخرجُ روحُها على مَـرْأى مِنْ نَظَرِ ابْنِها الذي لمْ يَرَ إنساناً مـاتَ أمامَهُ مِنْ قبلُ ، وزيادةً على ذٰلك تُدفنُ أمامَهُ هناك، ويَبقىٰ محمّدٌ وحيداً يَشعرُ بالوحدةِ ، على الرّغْمِ مِنْ وجـودِ جاريـةِ والـدِه أُمِّ أيمـنَ ، فَما العمـلُ يـا رَبُّ لهٰذا الطِّفـلِ المِسْكينِ؟!.. رُحْماكَ يا رَبُّ .

حَسْرَةٌ وَأَسى

لَمْ يَتَصَّورْ أنَّ عَينيهِ ستفيضـانِ بالدمْعِ بِهٰذهِ السُّرعةِ ، فلقـدْ بَكى مثلَ الكبارِ ، وامْتَلأَ قلبُـهُ بالأَسىٰ والحَسرة ، وحادِثٌ كهٰذا لَـنْ يَمُرَّ بمحمّدٍ دُونَ أنْ يترُكَ في نَفسِه أعمـقَ الأثرِ ، وصحيـحٌ أنّهُ كـانَ لا يزالُ طِفـلاً، ولٰكنَّ الطِّفلَ يدركُ معنى الأُمومةِ أكثرَ مِنْ غَيرِهِ ، وأُمُّهُ آمِنَةُ حبيبةٌ على قَلبِهِ . عاشَ مَعَها ، وَعَوَّضَتْهُ حَنـانَ الأبِ والأُمِّ مَعاً وكانتْ مَنهلَ حُبٍّ وحنانٍ .. كانَ إذا أَلمَّتْ بِهِ شَكْوى يقولُ شكواه لأمِّهِ ، وإذا نابَهُ ضعفٌ تَقوّى بأمِّهِ ، وإنْ أرادَ شيئاً ممّا يرغبُهُ الصِّغارُ يعتمدُ على أمِّهِ ، والآنَ تَقعُ أمُّهُ أمامَهُ ، ويـدفُنونَها أمامَ عَيْنيه ، وعَلى مَشْهدٍ مِنْهُ ، ومـا أكثرَ ما تكوِّنُ الأمُّ في وَفاتِها فراغـاً للصِّغارِ مِنْ أبنائِها ، فكيفَ بصبـيٍّ صغيرٍ لَيسَ لَهُ مِنْ إخوةٍ ، ولم يُشاهدْ أباهُ؟؟ أعانَ اللهُ تعالى هٰـذا اليتيمَ الصّغيرَ ، فإنَّ مُصابَهُ صَعبٌ أليمٌ.

الحِسُّ المرهَفُ

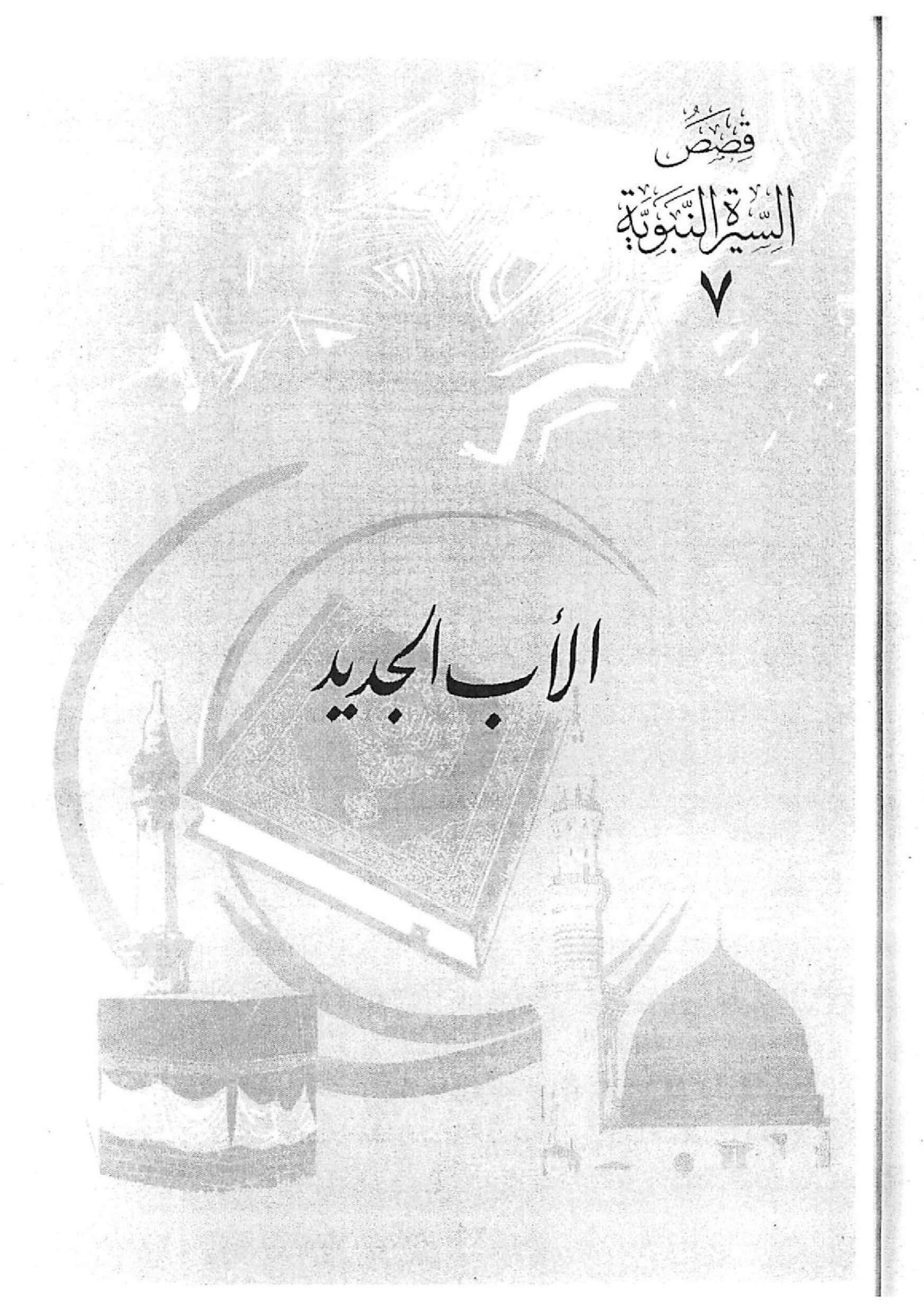
محمّدٌ يا أحبّائي مَعَ صِغرِه ، كـانَ يَحملُ بينَ جَنبيْهِ عواطِفَ الكبارِ ، وإحساسَهم المرهَـفَ ، يَفهمُ مِنَ التَّلميحِ ، ويعتبرُ مِـنَ النَّظَرِ ، وتكفيهِ الإشارةُ حَتّى يدركَ الأمرَ بسرعةٍ ، وكـانَ لا يملكُ سِوى قلبِ أُمِّهِ يفهمُ عليه إحْساسَـه وأحاسيسَهُ ، وقَدْ ذهـبَ الآنَ هٰذا القلبُ ، لذٰلـك فإنَّ حسَّهُ المرهَفَ لَنْ يَنْسى هٰذهِ الحادثَةَ ، وإنَّ أُمَّه التي عَلَّمتْه زيارةَ القبرِ ،

قَدْ أَضافَتْ لَهُ بموتِها قبراً آخرَ يَحتاجُ مَعَ قَبرِ أبيهِ القريبِ منهُ لـزيارةٍ وقليلٍ مِنَ الدُّموعِ .. ومحمّدٌ سيذرفُ الدَّمعَ الغزيرَ لأنَّ القبريْن يحويان أعَزَّ النّاسِ إليهِ : والِدَه الذي لمْ يَرَهُ ، وأُمَّه الّتي عاشَتْ معَهُ سنتين لا أكثرَ بعدَ عودتِهِ مِنَ الباديةِ ، وقدّمَتْ لَهُ أعظمَ الفوائدِ في الحنانِ والتَّربيةِ والرَّحمةِ ، وصِلَةِ الأقارِبِ مهما بعدَتْ مَساكنُهُمْ .

مَنْ سَيَرْعاه؟!

وإنّني في نهايةِ القصَّةِ يا أحبّائي سَوْفَ أَسْتمعُ إلى سُؤالِكم الذي سَيأتي في محلِّهِ : (مَنْ سَيَرعى الصَّغيرَ محمّداً بعدَ أنْ حدَثَ لهُ ما حدَثَ؟ ومَنْ سيكفلُ هٰذا اليتيمَ بعدَ أن ازْدادَ يُتْمُه الآنَ؟ ومَنْ سيُخفِّفُ عنهُ مرارةَ الحزنِ والوحدةِ ، بعدَ أنْ فارقَ أُمَّه العزيزةَ التي لحقَتْ بأبيهِ ؟ إنَّه لا يملكُ أخاً ولا أُختاً ، وليسَ لهُ طاقةٌ على العمَلِ ، فهُو ابْنُ سِتِّ سنواتٍ ، ولم يورِّثْ له أَبَواهُ المالَ الكافيَ لعَيشِه) .

الجوابُ لكُمْ عِندي .. ولَنْ أحْرِمَكم منهُ .. ولكنّي سَأتركُكُم الآنَ حتّى تنالوا قليلاً مِنَ الرّاحةِ ، ثُمَّ تقرؤون بِعزْمٍ جَديدٍ حلقةً جديدةً مِنْ سلسلةِ قَصصِ السِّيرةِ، وسَتَرَوْنَ فيها ما كانَ مِنْ أمرِ حبيبِنا الصَّغيرِ محمّدٍ بعدَ أنْ تركَتْهُ أُمُّه فَقيدَ الأبوينِ ..



إلى مكّة

رَجعَ محمَّدٌ ﷺ مِنْ زَيارتِه لقبْرِ أبيهِ يَتيمَ الأبوين بَعْدَ أنْ فَقدَ أمَّهُ وَهُوَ عائِدٌ إلى مكّةَ ، وفي الطَّريقِ تُرافقُه صُورتـان حَيَّتانِ للأبويْن الفقيدَيْنِ ، وَذكريـاتٌ حُلْوةٌ للمَـدينةِ الحلْـوَةِ (يثْربَ) في نَخيلِها وحدائقِها وبَساتِينِها ولُطْفِ اللّعبِ وجَمالِه مدّةَ شَهْرٍ مَعَ صِغارِها مِنْ أتْرابِه .
والآنَ .. ما عَلى اليتيمِ إلا أنْ يَصلَ إلى مَكّةَ ليَرى فِيها إذا كانَ ينتظرُه أمْرٌ آخرُ أو حادِثٌ ثالثٌ مُفجعٌ في عائِلتِه ، وما إنْ وطِئَتْ قدماهُ أرضَ مكّةَ حَتّى أعْطاها مِنْ عَيْنيه نَظرةً جديدةً لَمْ تَعهدْهُ الأحْياءُ فيها بمِثلِها ، وَوَجدَ فيها فَراغاً ما بَعدَهُ فَراغٌ ، فعلى الرُّغمِ مِنْ وجودِ السّكّانِ فيها ، إلا أنّهُ لَمْ يَرَ أحَداً في بَيْتِ آمِنةَ يَسُدُّ مَكانَ فَراغِها ، ما العملُ يا مَنْ تَرونَه عائِداً مِنْ يثْربَ ؟ أيْنَ منكُمُ الرّاعي الأمينُ والكَفيلُ الحقُّ ليَتيمٍ ماتَ أبُوه وهُوَ في بَطنِ أُمِّه ، وماتَتْ أُمُّه قَبْلَ أنْ يَصِلَ إليكُمُ الآنَ ؟ .

أَبٌ وَأُمٌّ

وإذا خَرَجْنا مِنْ بَيتِ آمِنةَ ، وَجـدْنا أنَّ اللهَ قَدْ هيَّأَ لِمحمَّدٍ قَلباً كَبيراً كانَ لَهُ بِمثابةِ الأبِ والأمِّ ، وإنّهُ لأقربُ أقربائِه بعدَ وفاةِ والدَيْهِ ، عرفَتْهُ مكةُ سَيّداً لَها ، ولأهْلِها .. واسْمُهُ (عَبْدُ المطَّلب ..) .

نَعم يا أحبّائي : أراكُم تُوافقون مَعي عَلى أنَّ الجدَّ عَبدَ المطّلبِ أسْرعُ مَنْ سيقدِّمُ العَوْنَ لهذا اليتيمِ الصَّغيرِ ، وإذا ما فَحَصْنا الحُبَّ

لَدى هذا القلبِ الحَنونِ وجَدْناه يَفُوقُ كُلَّ حبٍّ لمحمّدٍ ، وشُكراً للهِ الذي سَهَّلَ لحبيبِه منزلةً مِنَ الرِّعايةِ والعِنايةِ والإيثارِ والحبِّ فَوقَ ما كانَ يَتوقَّعُه كلُّ مَنْ عَلِمَ بقصّةِ مُحمّدٍ مِنْ أهالي مكّةَ، وإذا ما أضَفْنا لعبدِ المطّلبِ وُجودَ الجاريةِ أُمِّ أيْمنَ بحضانَتِها ورِعايتِها وحُبِّها وإحاطتِها لمحمّدٍ الصّغيرِ عَرفْنا يا أحبّتي أنَّ اليتيمَ قدْ وَقعَ في حضنِ (أُمٍّ وأَبٍ) وأُمٍّ زِيادةً عَلى ذلكَ، فالحمْدُ للهِ مُدبِّرِ الأُمورِ ومُهيِّئِ الأسْبابِ ..

أَدَبٌ سائِدٌ

وَقدْ أَلهَمَ اللهُ عَبدَ المطَّلبِ بأنْ يُجِلَّ اليَتيمَ الصَّغيرَ ، ويُعطيَهُ قَدْراً زائِداً مِنَ العَطْفِ والاحْترامِ ، ولقدْ كانَ مِنَ السّائِدِ عِندَ أهالي مكّةَ أنَّ الأبناءَ يَتربَّوْنَ على احْترامِ آبائِهِم في كُلِّ الأُمورِ وهَيبتِهم في كُلِّ النَّواحي ، وإظْهارِ الأدبِ والطّاعةِ معهُمْ ، فالولدُ لَمْ يَكُنْ في إمكانِهِ أنْ يَجلسَ مَعَ أبيهِ إلا بعدَ أنْ يبلغَ سِنَّ الرُّجولةِ ، فإذا ما بَلغَها جازَ لَهُ ذلكَ بشُروطٍ هامّةٍ ، يجبُ عليْه الالتزامُ بها ، كالمُشاركةِ في الحديثِ مَعَ الوقارِ والأدبِ والاحتِشامِ الذي لا يَرْفعُ فيه الابنُ كلامَهُ فوقَ كَلامِ أبيهِ ، ولا يفرضُ رأياً يعاكِسُ رَأيَ أبيهِ ، ولعلَّ هذا الأدبَ قدْ سَرى في كُلِّ البيوتاتِ والمجالِسِ المكّيّةِ ، فقُريشٌ لا تعرفُ ابْناً تطاوَلَ على أبيهِ ، ولا وَلداً عَلا صوتُهُ فوقَ صَوتِ والدِهِ ، ولا صَغيراً جَلسَ في مجْلسِ الكبارِ أبداً ...
فهلْ يا تُرى قدْ طُبِّقَ هذا عَلى اليتيمِ الصَّغيرِ أمْ لا ؟ .

دَعُوا وَلَدي !!

سَنقرأُ الجوابَ مَعاً .. إنَّ عَبدَ المطّلبِ كانَ مِنْ كِبارِ قريشٍ ، بَلْ سَيّدَ الكبارِ على الإطلاقِ شَرفاً ومكانةً ، وكانَ يتَّخذُ مَجلساً لَهُ بِجوارِ الكَعبةِ ، يَجلسُ فِيهِ مَعَ الرِّجالِ المُشارِ إليهِمْ بالبنانِ ، يبحَثُ وإيّاهُم الأُمورَ والمشكِلاتِ .

وَفي هٰذا المجلِسِ يا أيُّها الأحبَّةُ كانَ يُفرشُ لعبدِ المطَّلبِ فراشٌ في ظِلِّ الكَعبةِ ، ولا يَجرُؤُ بنُوهُ على الجُلوسِ فوقَ الفراشِ وإنَّما حولَهُ ، لكِنَّ اليتيمَ الصَّغيرَ كانَ يأتي إلى المجلِسِ ، ويَركضُ نَحْوَ الفراشِ ، فيجلسُ عليهِ ، ويقْتربُ منْهُ أعمامُهُ حَتّى يبْعدوه بلُطْفٍ ، إلا أنَّ عَبدَ المطّلبِ يراهُمْ مِنْ بَعيدٍ فَينْهاهم عَنْ إبْعادِه قائلاً : (دَعُوا ابْني هٰذا ، فالفِراشُ لأمْثالِه ، وسَوْف يَسُودُ بلْدَتَه في الغدِ ، أُتْركوهُ ، فلَهُ منزلةٌ في نَفسي لا تُعادِلُها منزلَةٌ).

قَلْبٌ مَكْلُومٌ

يقولُ جَدُّهُ هٰذا ثُمَّ يُقبلُ نَحْوَه ، يَمْسحُ بيدِهِ عَلى رأسِ الغُصنِ الجميلِ الّذي كانَ أثراً وَحيداً لعبدِ اللهِ ، ويا لَذِكراك يا عبدَ اللهِ مَعَ القلبِ المكلُومِ بموتِك .. كَمْ قاسى أبُوكَ يا عَبدَ اللهِ مِنْ وَفاتِك ! إنَّ والِدَكَ اليومَ لينظُرُ في وَلَدِكَ فيقرأُ فيه آياتِ التَّوصيةِ مِنكَ ، كأنَّكَ تقولُ لهُ : (لا تُؤاخِذْني يا أبي إنْ تركتُ لكَ هٰذا الغُلامَ ، فهٰذه مَشيئةُ اللهِ ، وإنْ كنتُ قَدْ أبقيتُ في مَوْتي جُرحاً لكَ ، فإنَّ فُؤادَكَ كَبيرٌ ، يَسعُني

ويَسَعُ جُرحَ مَوْتي ، وقَلبُكَ المكلومُ المعذَّبُ يا والدي سَيبقى سيِّدَ القُلوبِ وأغْلاها عَلى عَبدِ اللهِ وابنِ عبدِ اللهِ ، وابْني هُوَ ابْنُكَ يا أبي ، وأنتَ الوَحيدُ الذي تَقدِرُ على حُبِّ هٰذا الصَّغيرِ ، على الرَّغْمِ مِنْ جُرحِكَ الدّامي .. هٰذه وصيّتي عِندَكَ يا أبي ، وإنَّك لخيرُ مُعتمدٍ دونَ وصيَّةٍ ..) .

عاطِفَتانِ

وَما أحْلاها مِنْ وصيَّةٍ ، جَعلَتْ عبدَ المطّلبِ ينظرُ نَحْوَ ابْنِ وَلَدِهِ بعاطفةِ الأُبُوَّةِ التي كانَتْ تَملأُ قلبَهُ حُبّاً ونفسَهُ حَناناً ورِقَّةً ، وكأنهُ يجيبُ ولدَهُ عَبدَ اللهِ : (حتّى ولو كُنتَ مَيتاً يا ولدي فلَنْ أنْسى ولدَكَ الذي أَوْصَيْتَني به ، فَهُو وَلَدي بحَقٍّ ، وسَأمنحُه مِنْ قَلبي عاطفةً أُخرى، لَيْتَكَ شاهَدْتَه وعرفتَ لماذا ؟ إنَّ لِولَدِكَ يا عَبدَ اللهِ منزلَةَ الإعجابِ والزُّهوِّ في نَفْسي ، فإنَّ ما يبدو عَليْه لِلجميعِ مِنْ آياتِ العنايةِ الرَّبانيّةِ يدلُّ على أنَّهُ طفلٌ لا كالأطفالِ ، يستحِقُّ حَنانَ الجميعِ وأبوَّةَ الكُلِّ ، وأنَّه كائنٌ لَهُ في مُستَقبلِه أعظمُ الشَّأنِ ، ولقدْ جَعلنا نُحسُّ بِهٰذا مِنْ قَبلِ ولادتِهِ وبعدَ أنْ جاءَ وَرضعَ وَنَما وترعْرعَ ، لِذا فلا تَبتئسْ يا عَبدَ اللهِ ، وَنَمْ في قَبرِكَ قريرَ العَيْنِ هادِئَ البالِ، وثِقْ بالمُستقبلِ العظيمِ الذي يَنتظرُ فِلْذَةَ كَبدِكَ الوحيدَةَ) .

عَلائِمُ السُّمُوِّ

وَيَشهدُ التّاريخُ أنَّ عَبْدَ المطّلبِ قَدْ أعطىٰ أكبرَ الاهتمامِ لابنِهِ محمّدٍ ، وأَوْلاهُ مِنَ العنايةِ والرِّعايةِ أكثر ممّا يُولي إخوةَ عَبدِ اللهِ ، لِمَ لا وَقَدْ رَأى عَلى مُحمّدٍ مِنْ آياتِ السُّموِّ الكثيرَ الكثيرَ ، فَهو صَغيرٌ ولمّا يُكملِ الثّامنةَ بعدُ ، إلا أنّه كاملٌ في الأدبِ ، سامٍ في الخُلقِ ، بعيدٌ عَنِ اللّهْوِ ، لَا يَنزلُ لِدَناءةِ بَعْضِ الأطفالِ ، ولا يتطلّعُ معَهُمْ إلى المأكلِ والمشرَبِ ، والكُلُّ يرونَه هادِئاً مُتّزناً مُؤدّباً ، فكانَ لِذلك موضعَ الإعْجابِ والاهتمامِ ، وإنْ عرفنا أنَّ اليتيمَ عادةً لا ينْشأُ كما يَنْشأُ مَنْ كانَ أبواه على قيدِ الحياةِ ، اسْتطَعْنا أنْ نُدْرِكَ بأَنَّ آياتِ السُّموِّ لَمْ تكُنْ إلا مِنْ تَرْبيةِ اللهِ ، وهٰذا مِنْ مُعجزاتِ مُحمَّدِ بنِ عبْدِ اللهِ ، وهُو صَغيرٌ .. وما أَحْلى تأديبَ اللهِ له ، ربّاه فأحْسَنَ تربيتَهُ ، وأدّبَه فأحسنَ تأديبَه .

شِدَّةُ التَّعلُّقِ

وعندَما يَرى الشَّيْخُ عَبدُ المطّلبِ هٰذا العَجبَ مِنَ النّاسِ ، وهٰذا السُّموَّ مِنْ طِفلٍ يتيمٍ صَغيرٍ ، كانَ يَزْدادُ تَعلُّقاً بِهِ وَ اهتماماً بِشأْنِه ، وكُلّما زادَ التَّعلُّقُ بِهِ ، ازْدادَ الخوفُ عليْه ، فَلا سَهْوَ ولا إهْمالَ ، بَلْ مُراقبةٌ دائمةٌ تامَّةٌ ، وتفقُّدٌ في كُلِّ الأوقاتِ ، لا هُدوءَ للْبالِ إلا إذا كانَ اليتيمُ حاضِراً ، ولا اطْمئنانَ لِلفؤادِ إلا إذا كانَ مُحمّدٌ موجوداً ، وإذا ما حدثَ أنْ ذَهَبَ وابْتعدَ، كانَ اللّوْمُ على أُمِّ أيمنَ ، لِمَ فعلْتِ هٰذا يا أُمَّ أيمنَ ؟ كَيفَ تَتركينَه يَسرَحُ بَعيداً ؟ أينَ وَصيّتي لَكِ ؟ إنّهُ عَزيزٌ عليَّ ، حافِظي

على وُجُودِه قَريباً مِنّا ، إنّي أخافُ عليْهِ ، وأخْشى مِنَ الجميعِ ، ولا سيّما ممَّن عرفوا عِظَمَ شأنِهُ وسُمُوَّه . وتُكرِّرُ أُمُّ أيْمنَ العهدَ على الحفاظِ والمراقبَةِ مِنْ جَديدٍ ...

الاعترافُ بِالجَميلِ

ومَهْما أحَبَّ الطِّفْلُ غيرَه ، فإنَّ محبّتَهُ للّذي يحنو عَليه ، تكُونُ أكبَرَ بكَثيرٍ مِنْ محبّتِهِ للّذي لا يُقدِّمُ لهُ مِنَ الحنانِ والعَطفِ شَيئاً ..

وأنْتم يا أحِبّائي يُمكنكُمْ معرفَةُ ذٰلك، فَلو طلبتُ منكُمْ أنْ تَذْكروا لي أحبابَكُم المقرَّبينَ ؟ لقلتُم : أُمُّنا التي ربَّتْنا ، وحَنَتْ علينا ، وأبُونا الذي تَعِبَ مِنْ أجلِنا ، وعَمِلَ على تَربيتِنا وتنشِئتِنا ..

إذاً ، فلا غَرابةَ أَنْ يُحِبَّ محمّدٌ جَدَّه الّذي كانَ لهُ بمنزِلةِ الأُمِّ والأَبِ ، بِما كانَ يَحملُه مِنَ القَلْبِ الكبيرِ المَمْلُوءِ عاطفةً وحَناناً وشَفقةً ورِعايةً .. ومحمّدٌ أوّلُ مَنْ يعترفُ بالجميلِ ، فيشكرُ مَنْ يُسدي المعروفَ إليه ، ويُبادلُ جَدَّه عاطفتَه ، ويحبُّهُ أكثَرَ ممّا يحبُّ أحَداً مِنْ أهْلِه ، ويَتعلَّقُ بِهِ ، ويَندفعُ إليْه بِقلبِهِ الصَّغيرِ ليُبادلَه العواطِفَ الحلوةَ ولَوْ بابْتِسامةٍ مِنْ ثغرِهِ الحُلوِ الباسِمِ أوْ بإمرارِ رأْسِه تحتَ يَدِ الجدِّ الحنُونِ .

الخَبَرُ الحزينُ

ويدخُلُ محمّدٌ عامَهُ الثّامنَ منَ العمرِ ، وهُو يتفتَّحُ بعقلِه وفكرِهِ على مَعاني الحياةِ، ويتدرَّجُ نَحْوَ الغايَةِ العُلْيا ، بأخْلاقِهِ وسلوكِهِ وعَمَلِهِ ،

ويا ليْتكم أَحْبابي تتصوَّرون الدّرجةَ الرَّفيعةَ التي وَصَلَ إليها وهُو صَغيرٌ، ثُمَّ تقيسُونَ عليها أنفُسكم وأنتُمْ في مثلِ عُمرِهِ أوْ أكْبَرُ قليلاً ـ أَتَفْعلون هٰذا ؟ أَرجُو ذلك منكُمْ ـ وأُتابعُ معكمُ الحَديثَ : فَما إنْ أَتَمَّ الرَّسولُ ﷺ الثّامنةَ حَتّى افْتقَدَ اليدَ الحانيةَ ، فلمْ يجدْها !! ما الخَبرُ ؟

إنَّهُ خَبرٌ حزينٌ ، وحَزينٌ جِداً !! ما هُوَ ؟ موتُ عَبدِ المطَّلبِ .

نعمْ .. لقدْ ماتَ السَّيِّدُ الحنونُ ، والسيِّد العطوفُ ، وسيِّدُ القُلوبِ ، ماتَ الجدُّ ، ماتَ (الأبُ والأُمُّ) ذُو القَلبِ الكَبيرِ بَعدَ سنتيْنِ مِنْ رِعايتِهِ محمّداً وكَفالتِهِ لَهُ ، ويا لَلْخَبرِ الشّديدِ في وَقْعِهِ !!!

أَلَـمُ الْفاجِعَةِ

ولعلَّ محمّداً يَعي الآنَ وبقدرِ أكْبرَ مَعْنى الحزْنِ ، فقدِ ازْدادَ عُمرُه سنتين عنِ المرَّةِ التي بكىٰ فيها أُمَّـهُ ، وهٰذا يَعني يا أحبّتي الصِّغارَ أنّه قَدْ أَحسَّ بأَلَمِ الفاجعةِ الجديدةِ في الخَبرِ الحزينِ .

الأمْرُ لـدَيهِ الآنَ يحتاجُ إلى حُزنٍ وأَيُّ حزنٍ !! أيُّ حُزنٍ يَكفي في موتِ سيِّدِ الأُسرةِ وعَميدِها وحَجرِ الزّاويةِ فيها ؟

لَقَدْ أَدْرَكَ عِظَمَ المصيبةِ ، وعَرفَ أنَّـهُ فَقدَ القَلْبَ الكبيرَ الّذي حَنا عَلَيْه سنتَيْنِ كاملتينِ ، ولمْ يَعُدْ بجانبِ الرُّكنِ الشَّديدِ الّذي يشُدُّ به أزرَه، ويَستكْمِلُ تحتَ رعايتِـه نموَّه وسموَّه ، وجعَـلَ محمّدٌ يبكي ويَبْكـي ويَبْكي أكْثرَ مِنْ أعْمامِه، يَبْكي بكاءَ الحائرِ على مَصيرٍ لا يَعْرفُه ، وقَرارٍ

لا يَعْلمُه .. لقَدْ ماتَ عَبدُ المطَّلبِ ، وبكاهُ اليتيمُ الّذي تيَتَّمَ الآنَ للمرَّةِ الثّالثةِ .

ثلاثةٌ !!

بكى كَثيراً ، فثلاثةٌ همُ الّذينَ ماتُوا وهُوَ في أشدِّ الحاجةِ إليْهِم ، وهُمْ أقْربُ الأقرباءِ إليْه ، والدُهُ ، وأمُّهُ ، وجدُّهُ ، أَفَسيكونُ لهمْ رابعٌ ياتُرى؟ المهمُّ أنَّهمْ قدْ بلغوا الثّلاثةَ ، ورَسموا في قَلبِ الصَّبيِّ الصَّغيرِ ثلاثةَ جُروحٍ تتفاوتُ في عُمقِها ، لٰكنَّها تتساوى في مَصْدرِها ، فهي عَنْ حِسٍّ مُرهفٍ واحدٍ ، وفُؤادٍ صَغيرٍ واحدٍ ونَفْسٍ شفّافةٍ واحدةٍ .

لَقَدْ قَضى سَنتيْنِ عنْدَ حليمةَ بعد رضاعِهِ منْها ، ليعُودَ إلىٰ مكَّةَ ، ويعرفَ الكثيرَ عنْ عائلتِهِ الحقيقيَّةِ ، ثُم قضى سنتيْنِ مع أُمِّهِ آمنةَ ليختم رُؤياهُ لها في زيارةِ قَبْرِ أَبيهِ البعيدِ في يثربَ ، ثُمَّ ها هُوذا يَقْضي سنتيْنِ مع عَبْدِ المطَّلبِ ، لينُهيَ السَّنةَ الثّامنةَ ، ويسجِّلَ الرَّقمَ الثّالثَ في التّنقُّلِ ، وفي الرِّعايةِ ، وفي المآسي والبُكاءِ والحزْنِ .

مَنْ لَهُ يا ربُّ ؟

وَالآنَ .. ارْفعوا أيديَكُمْ إلى اللهِ وقُولوا مَعي :

يا رَبُّ . لقدْ رعَيْتَ محمّداً عَبْدَكَ الصَّغيرَ مِنْ قَبْلِ أنْ يُولدَ ، وصنعْتَهُ علَى عَينِك بعْدَ أنْ وُلِدَ، وجعلْتَهُ يَسيرُ وفْقَ إرادَتِكَ مِنْ صِغرِهِ ، ونقلْتَهُ بيْنَ الباديةِ ومكَّةَ ويثربَ ، ثُمَّ أعدْتَه إلى مكانِ ولادتِهِ ليُفجعَ بوفاةِ جدِّهِ،

وأنتَ وحْدَكَ الكَـريمُ الّذي لا يُنافِسُـه كريمٌ ، وأنْتَ وحْـدَكَ الّذي لا تَغفلُ عَنْ رِعايةِ عِبادِك ، وتَعْرفُ ما جَرى لليتيمِ؟

فماذا سَيَكونُ مِنْ أمْرِه بَعْدَما أتَمَّ الثّامنةَ ؟ أتراهُ يُتمُّ بقيَّةَ الحياةِ وَحيداً مُنْفرداً؟ أيُقاسِي مِـنَ الانْعِزالِ والانْفِرادِ بَعْدمـا قاسىٰ مِنْ اليُتْـمِ والفَقْرِ والمآسي الّتي لا يَتحمّلُها الكبارُ فكيفَ بقلبِه الصَّغيرِ ؟

هيِّئْ لَـهُ يا ربُّ قَلباً يعادلُ قلـبَ مَنْ مـاتَ ، رَحمةً وحنانـاً ، وشفقةً وعطفاً، ورعايةً واهْتِماماً .

العَمُّ أَبُو طالِبٍ

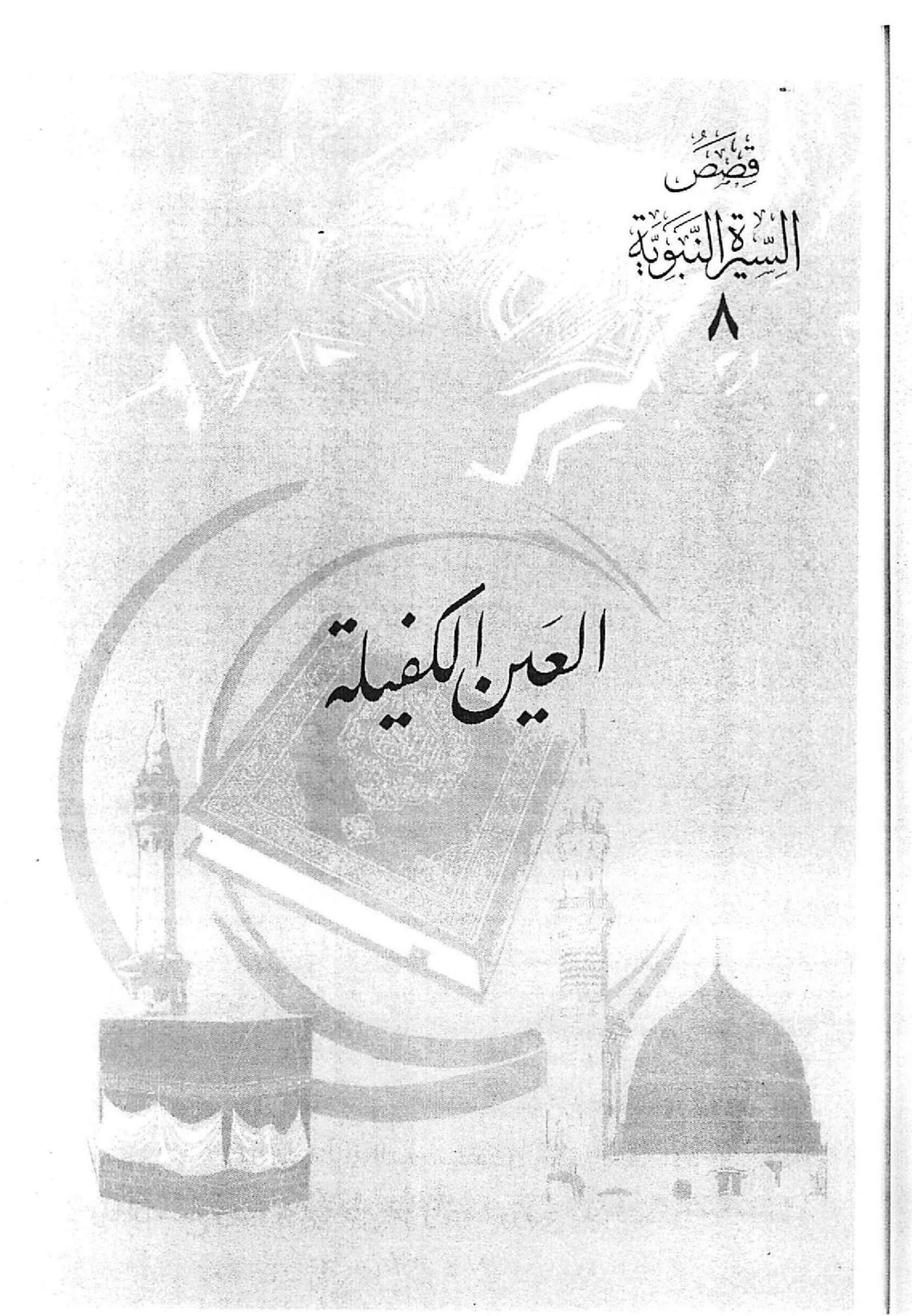
الحمدُ للهِ ، وشُكراً لمَنْ يَسْتجيبُ الدُّعاءَ وحْدَهُ ..

إنَّنا نقرأُ عنواناً يتحدَّثُ عَنِ اسمٍ جديدٍ هُوَ عمُّه عبدُ منافٍ المعروفُ بأبي طالبٍ (شقيقِ والدِه) .

إنَّه الـرّاعي الجديدُ والعينُ السّاهـرةُ واليدُ الحانيَةُ بَعْدَ عَبـدِ المطَّلِبِ الذي افْتقدَهُ محمّدٌ يا أحِبّائي ..

اللهـمَّ إنَّنا في غـايـةٍ مِنَ السُّرُورِ أنْ هَـدَيْتَنـا لقـراءةِ سيرةِ رَسُولِـك العظيمِ ﷺ ، وإنَّـكَ بسُرورِنا خَبيرٌ عَليمٌ ، فاجْعَـل لنا بقراءَتِنا ثَـواباً ، وبفَهْمِنا نُوراً ، واجْعَلْ حَسناتِنا مُثمرةً كُلَّ حِينٍ ، ويُسجِّلُها لنا التّاريخُ في صَفحَةِ الخَيرِ ..

اللهمَّ أحِطْنا بِرعايتك ، واكفَلنا في تـرْبيةٍ رَفيعةٍ عاليةٍ ، واصْنَعنا على عَيْنك يا ربَّ العالمين ..



وَصِيَّةٌ جَميلَةٌ

لا شَكَّ يا أحبَّتي أنَّ عَبْدَ المطَّلِبِ قَدْ قامَ قَبْلَ موتِـهِ بعَملٍ جَليلٍ في نَظَرِهِ . أَتدْرون ما هُوَ ؟ إنَّهُ عَلى شكلِ وصيَّةٍ ، لَقَدْ نَظَرَ في أَولادِهِ التِّسعةِ الباقينَ عَلى قَيْدِ الحياةِ ، ثُمَّ اخْتارَ أَبا طالِبٍ وَلَدَهُ مِنْ دُونِ الآخرينَ ، وقالَ لَهُ : (يا وَلدي.. ها أنذا كَما تَرى قَدْ دَنا أَجَلي ، واقتربتْ نِهايتي ، وَلِيَ عِنْدَكَ طَلَبٌ هامٌّ ، لا أَراكَ تبخَلُ عليَّ في تنفيذِه !) .

قالَ أَبو طالِبٍ : أنا رَهْنُ أمرِكَ يا أَبي ، أَمدَّ اللهُ لَنا في عُمرِكَ ، مُرْني بما تَشاءُ .. تنهَّدَ الأَبُ الوقورُ وهُوَ يلفِظُ أَنْفاسَه الأخيرةَ قائلاً :

(لَيسَ لي مِنْ أمانةٍ في عُنُقِك إلاّ ابْنُ أَخيك ، هٰذا الغُلامُ اليتيمُ ، فأَحسِنْ رعايَتَهُ، واضْمُمْهُ إلى أُسرتِك ، واجْعلْهُ في كَفالتِك ، أَعانَكَ اللهُ) .

... ثُمَّ لَفَظَ الجدُّ نَفَسَهُ الأَخيرَ وماتَ .

الأَمْرُ واضِحٌ

وأَبُو طالِبٍ لا يَحتاجُ إلى وصيَّةٍ كهٰذِهِ ، فالأَمْرُ واضحٌ برُغْمِ تكْرارِ الوصيَّةِ مِنْ قَبْلُ، وهُوَ يعْرفُ أنَّ ابْنَ أَخيه جَوْهرةٌ نَفيسةٌ ، تستَلْزمُ العنايَةَ والحِرصَ والشِّدَّةَ في ذٰلك ، ويَعرفُ أَيْضاً كُلَّ الأُمورِ التي حدثَتْ لمحمَّدٍ معَهُ في السَّنواتِ السّابقةِ ، فقَدْ شَهِدَ الجميعُ نجابتَه وذكاءَه وَوَعْيَهُ الكبيرَ ، وأَحَسَّ مِثْلَ والدِهِ بمستقبلٍ عَظيمٍ ينتظرُ الابْنَ اليتيمَ ، وما أنْ سمِعَ وصيَّةَ والدِهِ حتَّى هَزَّ رَأْسَه ، ورَضيَ دُونَ تردُّدٍ .

وإنْ قُلْتُ لكُمْ يا أَحِبَّتي : إنَّ أبا طالِبٍ كانَ أَقَلَّ إخْوتِهِ مالاً ، وأَكْثرَهم عِيالاً ، فستَسْتغْربون اختيارَ والدِهِ لَهُ مِنْ دُونِ إخوتِهِ طالَما أنَّ يدَه لا تَمْلكُ ما يملكُهُ الباقُونَ ، وعيالُهُ يشكِّلُون رقَماً قياسيّاً بيْنَ أَوْلادِ أَشقّائِه ، فَما السِّرُّ في ذٰلكَ يا تُرى؟

مِنْ أَجْلِ المستقْبلِ ؟

إنَّ عَبْدَ المطَّلبِ كانَ يعلَمُ أنَّ المالَ لا يكْفلُ يتيماً ، وقلَّةَ العيالِ لا تُؤثِّرُ كثيراً في تربيةِ محمَّدٍ ، وكانَ يعلَمُ أنَّ أبا طالبٍ قليلُ المالِ كثيرُ العيالِ ، لكنَّهُ أَقْربُ إخوةِ عبدِ اللهِ صِلَةً ، بل هُوَ شقيقُه ، ويحملُ مِنْ عواطِفِ الرَّحمةِ والحنانِ ودوافعِ المروءَةِ والنَّخْوَةِ ما لا يَحْملُه إخوتُهُ الباقُونَ ، وإنَّ عَبْدَ المطَّلِبِ ليعلمُ أنَّ الغايةَ مِنِ اختيارِهِ لأَبي طالِبٍ كامنةٌ في الهَدفِ البعيدِ والمُستقبلِ العظيمِ ، وَإنْ كانَ المالُ عَرضاً زائلاً فالباقي هُوَ الحنانُ والرَّحمة ، إذاً فلا عَجبَ مِن اختيارٍ كهٰذا يا أحبَّتي ، لأنَّ المهمَّةَ شاقَّةٌ وعسيرةٌ ، ولَنْ يتحمَّلَها إلاّ أَبُو طالبٍ، سَيَحْمي ابْنَ أَخيهِ مِنَ الآن وحتّى يَبعثَ اللهُ رسولَهُ بينَ العربِ ، ويبلُغَ شأنَهُ الذي توَقَّعَه لَهُ الجميعُ ولا سيَّما أهلُهُ وذَووه وأقرباؤُه .

الرُّكْنُ الأَمينُ

وبعْدَ هٰذا .. أفليْسَ سيِّدُ قريشٍ مُحقّاً في اختيارِهِ ؟ أَلَمْ يَرَ عَبْدُ المطَّلبِ أكرمَ الصِّفاتِ في طفولَةِ محمّدٍ ؟ أَفَلا يكونُ مصيباً إذا توقَّعَ للطِّفلِ اليتيمِ مُستقبلاً عَظيماً ؟ بَلى .. وَبالتأكيدِ سيقُومُ أَيُّ إنْسانٍ إذا كانَ في

مكانِهِ بِما فَعَلَهُ مِنْ وصيّةٍ للأبناءِ بمحمّدٍ ، وإنَّ العَمَّ الذي اختارَه لَنِعْمَ العمُّ ، يَحملُ بَيْنَ جنبيه نَفساً تَتَسعُ لأكثَرَ مِنْ يتيم ، ولأَكْثر من عَظيم ، ولا غَرابةَ أَنْ يكونَ أَبُو طالبٍ هُوَ المسْؤولُ بَعْدَ وَفاةِ أبيه سيِّدِ العربِ .

وَمِنْ وَقْتِ الوصِيَّةِ نَزَلَ مُحمَّدٌ قَلباً أَميناً وسكَنَ رُكناً عَظيماً ، ولجَأَ إلى طُمأنينةٍ كَبيرةٍ تَثِقُ بأهمّيةِ الوصِيّةِ ، وضرورةِ تَنْفيذِها على أَتمِّ وَجهٍ ، فنَمْ يا عَبْدَ المطّلبِ هادِئاً ، قريرَ العَينِ ، مُعتمداً على اللهِ ثُمَّ على أبي طالبٍ ذي اليَدِ الحانيَةِ ، والرّأفَةِ والرّحمةِ .

البرهانُ الصَّحيحُ

ويالَيْتَكَ تَراه يا عَبْدَ المطّلبِ .. ليتَكَ تَرى أَبا طالبٍ الذي قَدَّم طاعَتَهُ لأَمرِك .. وستحدِّثُنا السِّيرةُ الطّاهرةُ في صَفحاتٍ قادمةٍ أَنَّ أَعمالَ ولدِكَ الرَّحيمِ قَدْ أَعطَتِ البرهانَ السّاطعَ والدَّليلَ القاطعَ على حُسنِ ظَنِّكَ بِهِ ، فَلَقَدْ ضَمَّ أَبُو طالبٍ محمّداً إليْه ، وجَعَلَه واحِداً مِنْ أَهْلِه ، ودافعَ عَنْ سلامَتِهِ ، وساعَدَه على النُّشوءِ والنموّ ، وبذَلَ كُلَّ ما في وسْعِهِ مِنَ العطْفِ في صِبا محمّدٍ ورجولتِهِ ودَعْوتِهِ .

وَسَنَرى يا أَحِبَّتي الآنَ كيفَ عاشَ محمّدٌ مع عمِّهِ في أمانٍ واطْمئنانٍ ، وسنَدْرُسُ معاً هٰذا القِسمَ الهامَّ مِنْ حياتِهِ ، فلقدْ عاشَ مع العمِّ أبي طالبٍ أكبَرَ مدّةٍ مِنْ حياتِهِ وشبابِهِ ودعوتِهِ ، كلُّها نِضالٌ وجهادٌ مَعَ الحياةِ والنّاسِ.

وقبْلَ أنْ نَبْدأَ هٰذه المرحلَةَ علينا أَنْ نَفْتَحَ عقولَنا أكثرَ ، فقَدْ بدأَتْ مهمَّةٌ حلوَةٌ ، وصعبَةٌ وهامَّةٌ..

رِعايةٌ وإكرامٌ

لَقَدْ حلَّتِ البركَةُ في بيْتِ أبي طالبٍ مِنْ قِبَلِ وصيَّةِ عبدِ المطَّلبِ ، وإنَّهُ مَنْ يَرْعَ محمّداً ومَنْ يُكرِمْه فسيكرِمُه اللهُ ويباركُ لهُ ، لَقَدْ كانَ هٰذا العمُّ مثلاً عالياً في محبَّةِ الطِّفلِ الصَّغيرِ ، يحبُّهُ أكثرَ مِنْ أَوْلادِهِ ، لا يَنامُ إلاّ إذا اطمأَنَّ عليه ، ولا يخْرُجُ مِنَ الدّارِ إلاّ ويأْخُذُه مَعهُ .

لقدْ بارَكَ اللهُ لَهُ في أَهلِهِ وطعامِهِ وحياتِهِ .. وما أكرمَهُ مِنْ عَمٍّ حينَ ينتظِرُ الصَّغيرَ اليتيمَ حتّى يحضُرَ ثُمَّ يَأْكُلُ الجميعُ ، فإذا ما كانَ الغداءُ يقولُ الأبُ لأولادِهِ : (كما أَنْتُم حَتّى يحضُرَ ابني !!) ويأتي ابنُهُ محمّدٌ ، فيأْكُلُ معهم ، ويَشْبعونَ فيشْبَعُ معهم، ولا يَزالُ أكثَرُ الطَّعامِ في الصُّحونِ ، فيقُولُ العَمُّ أبو طالبٍ لمحمّدٍ : (إنَّكَ لَمباركٌ) .. (إنَّكَ لمبارَكٌ) ..

ثُم يضمُّه إلى صَدْرِه ويقبِّلُهُ ، ويسأَلُ اللهَ عافيةً وقوّةً ليَرعى اليتيمَ المبارَكَ.

النَّفْسُ العاليةُ

وَمَعَ أَنَّ أبا طالبٍ كانَ يخصُّ محمّداً بأَطايبِ الطَّعامِ ، ويُؤثِرُه على أولادِه، ويُكرمُه ، ويَعْتَني بِهِ عنايةً زائدةً ، إلا أنَّ اليتيمَ كانَ ذا نفسٍ عاليةٍ، ولا يتهافَتُ على الطَّعام تهافُتَ الأطفالِ ، ولا يتأفَّفُ مِن نَوعٍ

منهُ، ولا يَشْكو إذا جاعَ ، كَما يَشكو الصِّغارُ ، ولا يَتخاصمُ إذا حَضَرتِ الأطباقُ والأطعمَةُ .. إنَّهُ مِنْ صغرِهِ ، يعرِفُـه الجميعُ مُؤدَّباً عَفيفاً ، عاليَ المقامِ ، يستَحقُّ الرِّعايةَ الزّائدةَ ، وإنَّه ليلْمسُ حَنانَ عَمِّهِ عليهِ ، فَيحبُّ عَمَّه حُبّاً كَبيراً ، ويُقدِّمُ لَهُ مِنْ قَلْبِـه الصَّغيرِ احْتراماً ما عَهِدَه الآباءُ مِنْ أبْنائِهم ، فكيفَ مِنْ أبناءِ إخْوَتِهم ؟ وهٰذا ممّا زادَ تعلُّقَ الاثنينِ كلٍّ منهما بالآخر يَوْماً بَعْدَ يومٍ ، ألا تحبُّونَ أيُّها الأَحْبابُ أَنْ تكونَ لِكُلٍّ مِنّا نفسٌ كنفسِ سَيِّدِنا محمّدٍ ﷺ في صِغَرِه؟ أَليْسَ عُلوُّ النَّفسِ صفَةً جيّدةً إذا كانَ عَنْ أدبٍ وعفَّةٍ ، لا عَنْ تكبُّرٍ؟ بَلى . اللَّهمَّ لا تحرِمْنا مِنْ ذٰلكَ .

تجارةٌ إلى الشّامِ

ويكْبَرُ الصَّغيرُ ، ويَـزْدادُ عُمْرُه أَرْبَعَ سَنواتٍ بعـدَ وفاةِ جـدِّه عبدِ المطَّلبِ، وسَتَقُولون : إنَّ عُمرَه أَصْبحَ اثنتـي عَشرةَ عاماً ، هٰذا صحيحٌ ، وعندَما أَتمَّها تعلَّقَ بِعمِّهِ أبي طالبٍ الذي نَوى الخروجَ في تجارَةِ الصَّيفِ المعتادةِ إلى بِلادِ الشّامِ ، وهُنا تذكَّرَ سيِّدُنا محمَّدٌ وهو صَغيرٌ قصَّةَ والدِهِ التي عَرَفَها (إذْ ذَهبَ عَبْدُ اللهِ في تجارةٍ إلى الشّامِ ، ومرِضَ عندَ عَودتِه ، وماتَ في يثْربَ عنْدَ أخـوالِهِ) ، فلِماذا لا يتعلَّـقُ بعمِّهِ إذاً حتّـى يعرف الطَّريقَ الشّاقَّةَ ، وَ الحياةَ المرَّةَ التي ذاقَها والدُهُ فأثَّرَتْ على حياتِهِ؟

ولمّا كانَ عمُّهُ ذا اهتِمامٍ شـديدٍ بِهِ ، وافَقَ على ذهابِ ابْـنِ أَخيهِ معَهُ . وأَعدَّ الاثنانِ عـدَّتَهما ، وانْضمّا إلى القافلةِ ، وقَطَعا مع التُّجّـارِ مسافاتٍ طويلةٍ ، وطريقاً صعْبةَ الاجْتيازِ ، عرفَ محمدٌ خلالَها الكثيرَ عَنْ أَسْبابِ

مَوْتِ والدِهِ.

تحْتَ الشَّجرةِ

ووصلَتِ القافلَـةُ إلى مدينةِ (بُصرى) في بِلادِ الشّامِ ، وتـوقَّفَتْ عنْدَ محطَّةِ (الشَّجرةِ) التـي اعْتادَ المكِّيُّونَ أَنْ يجعَلوهـا نقطةَ اسْتراحةٍ لهُمْ في سَيْرِهم غدُوّاً ورَواحاً ، وهناك بالقُربِ مِنَ الشَّجرةِ ، وعلى تلَّةٍ متوسّطَةِ الارتفاعِ كـانَتْ صـومعَةُ الـرّاهِبِ (بَحيرا) راهِـبِ بصْرى ، ومِنْ بـابِ الصَّومعـةِ ظَهَرَ الرّاهِبُ وهُـوَ ينظُرُ بعَجبٍ ودهشـةٍ إلى القَوْمِ المكِّيّينَ ، وركَّزَ نظرَهُ على الشَّجَـرةِ التي يسْتريحون تحْتَها !! ما الخبرُ يـاتُرى ؟! ما السَّبـبُ الذي جَعَـلَ أغصانَ الشَّجـرةِ تتمايَلُ وتَنْحني ، وَالرِّيـحُ غيْرُ موجُـودةٍ في تلكَ الأيّامِ ؟! إنَّ التَّمايلَ والانحنـاءَ على غُلامٍ صَغيرٍ دون سائِرِ القوْمِ ؟!!!

لا بُدَّ وأنَّ في الأمـرِ سِرّاً جعلَ الرّاهِـبَ يخرجُ مِنْ صومعتِـهِ ويتعجَّبُ أشدَّ العَجَبِ!!..

دَعْوةٌ إلى الطَّعامِ

إنَّ الـرّاهِبَ بحيرا مشهـورٌ بِعلمِهِ ، وقـراءَتِـه في التَّوراة والإنْجيـلِ ، ويَعرفُ أَنَّ في هٰذينِ الكتابيْنِ إشاراتٍ ودلائلَ على نَبيٍّ سيظْهرُ في بلادِ العربِ ، وهٰذا وَقْتُه ، ولَهُ صفاتٌ ومَلامحُ قَدِ انطبقَتْ مِنَ النَّظرةِ الأُولى على هٰذا الغُلامِ ، حَتّى إنَّ الـرّاهبَ عَرَفَهُ كما يعرفُ الرَّجُلُ ابْنَه ، ولٰكنَّ

الأَمْرَ يحتاجُ إلى اطمئنانٍ .. وحُبُّ الاستطلاعِ مَوجودٌ في الإِنسانِ أَيّاً كان، إذاً لا بُدَّ من التّدقيقِ ، ما العملُ ؟

وسرعانَ ما سَرى بينَ القَوْمِ أَنَّ دَعوةً مِنَ الرّاهبِ لجميعِ المسافرينَ في القافلةِ أَنْ يَحْضروا إلى صومعتِهِ ، فقَدْ صَنعَ لهُمْ طعاماً فاخِراً إِكْراماً لقُدومهم ، وبَدأَ الكبارُ يتوجَّهُون ، وبقيَ الصِّغارُ عِندَ الشَّجرَةِ ، فتكَرَّرَت الدَّعوةُ للجميعِ صِغاراً وكِباراً، وعجبَ القَوْمُ ، إنّهم ما اعتادوا صغيراً يحضرُ مَعَهم مِنْ قَبْلُ !! وعلى وَليمةٍ؟!

أَسْئلةٌ ؟؟ وابتسامةٌ

وَدَخل الصِّغارُ مَعَ الدّاخلينَ ، ورَحَّبَ بهمُ الرّاهبُ مثلَ غيرِهم ، وجعَلَ يتفرَّسُ ويُعيدُ النَّظَرَ في محمّدٍ ، ويَتظاهرُ بوضْعِ الطَّعامِ وهو يَنْظُرُ ويَنْظرُ ، وأَتمَّ الجميعُ تحلُّقَهمْ حَوْلَ المائدةِ ، وطَعِموا مِنْ أَطايبِ أَكْلِ أَهْلِ بُصرى ، وعَيْنُ الرّاهبِ فيها الكثيرُ مِنَ التَّساؤلِ ، وشَكَرَ للقَوْمِ أَنْ لبُّوا دَعْوَتَه ، وشكَرَه الكبارُ على كَرمِه ، وبَدَؤوا القيامَ عائدين، فاقتربَ بحيرا مِنَ الغُلامِ وبلطْفٍ زائدٍ أخذ يُرحِّبُ بِهِ مِنْ جَديدٍ ، ويَسْأَلُ عَنِ اسْمِهِ وعُمْرِهِ ، وحالاتِ نومِهِ ويقظتِهِ ، فَوجَدَ أَنَّ جميعَ أسئلتِهِ تَفْتَحُ له المزيدَ مِنْ حُبِّ المعرفةِ والعلمِ بشأْنِ هٰذا الغلام ، وكلّما عَرَفَ جواباً عن سُؤالٍ هَزَّ رأسَهُ ، وزَمَّ شَفتيْهِ ، ثُمَّ ابتسَمَ كأنَّهُ حقَّقَ أمنيةً وعرفَ حَلاً ، ومُحمّدٌ لا يَدْري لماذا يَخُصُّهُ الرّاهبُ بالأَسئلةِ دُونَ غَيرِه ؟

خاتَمُ النّبوَّةِ

وهَمَّ مُحمّدٌ بالخُروجِ ، وهُو لا يكادُ يَفْهمُ مِنْ نظرةِ الرّاهبِ إلا العجبَ مِنْ أمرِهِ، وشَكرَ الرّاهبَ على الضّيافةِ ، ووجَّه وَجْهَه نَحْوَ بابِ الصَّومعةِ ، لٰكنَّ الرّاهبَ أشارَ إليهِ بالبَقاءِ ، وبحَيرَةٍ شديدةٍ ، كانَ الرّاهبُ يفتِّشُ عن السُّؤالِ الأخيرِ وهُوَ يقولُ في نَفْسِه :

(وأَيْنَ خاتمُ النّبوّةِ إذاً ؟ هَلْ أستطيعُ رؤيتَهُ بينَ كتفَيهِ ؟) تقدَّمَ ونظَرَ بأَدبٍ ، فرأى شَامةً سَوداءَ في ظهرِهِ كأَنّها الخاتَمُ ، عرفَها وأَيْقنَ أَنَّ الغُلامَ هُوَ النَّبيُّ المنتظَرُ الّذي يقرؤه الرّهبانُ في تَوْراتِهم وإنجيلِهم ببشارةِ موسى وعِيسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وهُنا .. تَنهَّدَ الرّاهبُ بعُمقٍ ، وافتَرَّ ثغرُهُ عَنِ ابتسامةِ الرِّضا ، كأنّه منتصِرٌ في نِهايةِ معركَةٍ ، وسَمَحَ لمحمّدٍ بالخُروجِ .

حِوارٌ هامٌّ

ثُمَّ سأَلَ الرّاهبُ أَحَدَ الكبارِ : مَنْ وليُّ أَمْرِ هٰذا الغلامِ منكُمْ ؟ (وهو يشيرُ إلى محمّدٍ الخارجِ مِن الصَّومعةِ) فأجابَهُ الرّجُلُ : إنّه مِنْ أسرةٍ عريقةٍ في قريشٍ ، وقَدْ أَتىٰ معَ أبي طالبِ بْنِ عبدِ المطَّلبِ ، فتقدَّمَ الرّاهبُ من أَبي طالبٍ بعدَ معرفتِه ، وأَجرى معه الحوارَ الجميلَ التّالي باهتمامٍ :

ـ ماذا يكونُ هذا الغلامُ بالنِّسبة إليكَ ؟

ـ هُوَ ابْني .. أَتُريدُ منهُ شَيئاً ؟

ـ لا .. ولٰكنَّ والِدَ الغلامِ لَيْسَ حيّاً وما ينبغي لَهُ ذٰلك!!

ـ هو ابْنُ أَخي .. وقَدْ ماتَ أبوه مُنْذُ زمنٍ بعيدٍ ..

ـ أَنْصَحُ لكَ يا أبا طالبٍ أَنْ تَرجعَ به ، وأَنْ لا تأتيَ بِهِ مرَّةً أُخرى إلى هُنا ، واحْرِصْ عليهِ مِنَ اليهودِ ، فَلَوْ عِلِموا ما علمتُهُ لأَوْقعوا بِهِ الشَّرَّ والأذى .

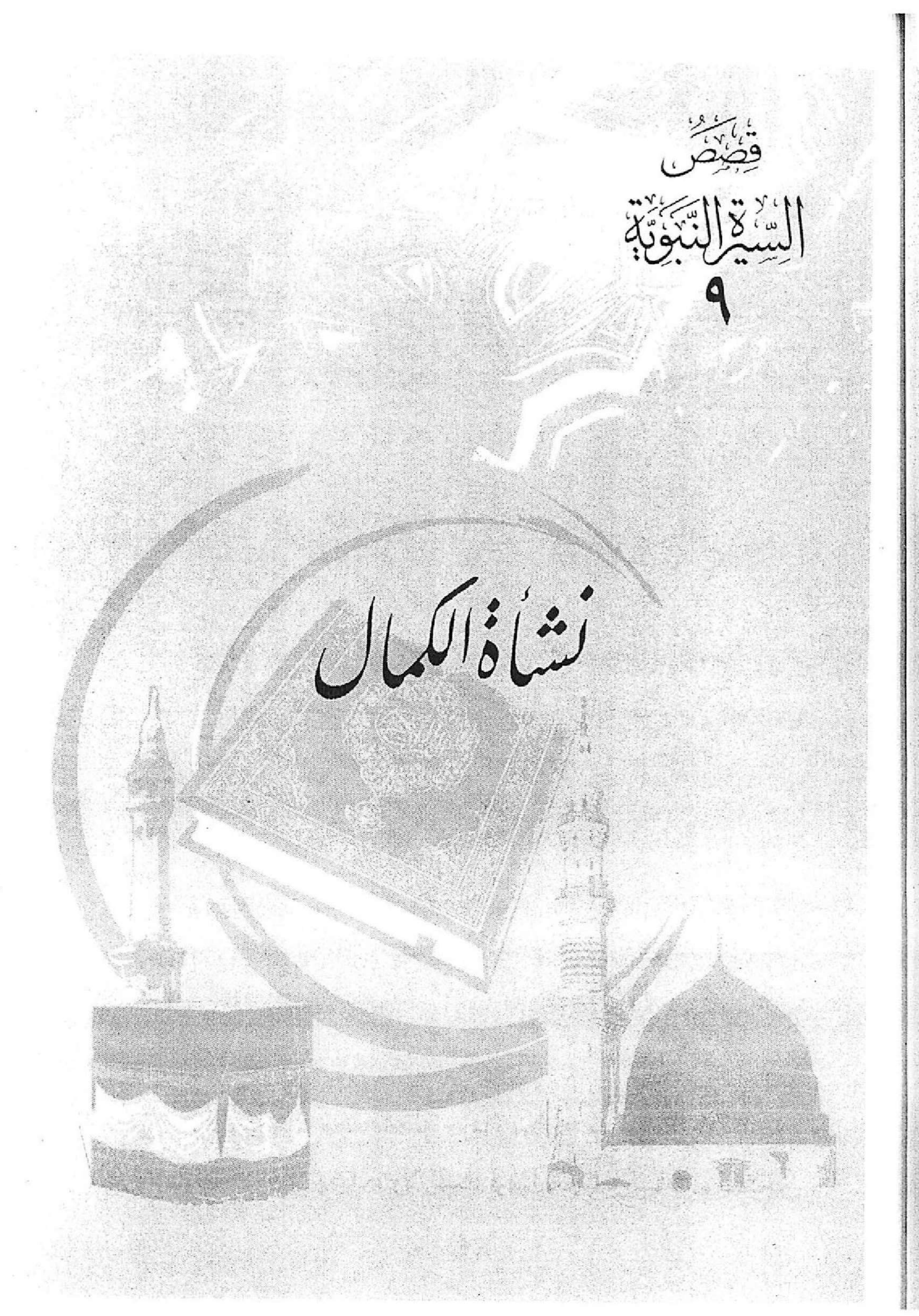
عَوْدَةٌ نهائيَّةٌ

وشَكَرَ أبو طالبٍ للرّاهِبِ نصيحَتَهُ ، وفَهِمَ أَنَّ المستقبلَ العظيمَ مؤكَّدٌ لابْنِ أَخيهِ لا محالَةَ عَنْ قريبٍ ، وَأَنَّ عليهِ حِفْظَ السِّرِّ ، فاليهودُ يترقَّبون خبراً عَنْ نبيِّ العربِ المنتظَرِ ، حتّى يَعْرِفوا مكانَهُ وَيحاولوا قَتْلَهُ .

وكانَتْ عودةً نهائيَّةً في نيَّةِ العمِّ ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ التُّجّارُ عَمَلَهم ، وبَدأَ الحرصُ يَزْدادُ بَعْدَ هٰذا اللِّقاءِ مَعَ الرّاهِبِ ..

وفي نهايةِ القصَّةِ أُودِّعُكم يا أحبّائي ، إلى قِصَّةٍ جديدةٍ بَعْدَ أَنْ فهِمْنا الحكمةَ التي أرادَها اللهُ مِنْ تعلُّقِ محمَّدٍ ﷺ بالعمِّ أبي طالبٍ وذهابِهِ معَهُ إلى الشّامِ في التِّجارةِ .

لَقَدْ عرف سرَّ مَوْتِ أبيه ، وأَطْلَعَ النُّفوسَ المترقِّبةَ على أَمْرٍ جليلٍ وعظيمٍ .. وَإلى حلقةٍ أخرى من قصصِ السيرةِ ، والسَّلامُ عليكمْ ورَحمةُ الله تَعالى وبركاتُهُ .



حِسٌّ مُرهَفٌ

مَرحَباً بكُمْ يا أَحِبّائي ، وَأَهْلاً بمَنْ يُتابعونَ مَعيَ معرفَةَ سيرَةِ الرَّسُولِ الكَريم ﷺ، وَها أَنَذا أُواصلُ العَمَلَ بعوْنِ اللهِ تَعالى .

عادَ محمّدٌ الحبيبُ وهُوَ صغيرٌ مِنْ رحلَةٍ مَعَ عَمِّهِ إلى بلادِ الشّامِ ، لقَدْ عادَ إلى مكّـةَ ، بَعْدَ أَنْ فهِمَ معنى المسْؤولية برغـمِ صغرِ سنِّهِ ، فـالحياةُ تَحْتاجُ إلى عَملٍ .. ومالٍ.. ونَفَقةٍ ، وأبـو طالبٍ كثيرُ العِيالِ قليلُ المالِ ، لذٰلكَ ما على اليتيمِ الصَّغيرِ إلاّ أَنْ يُفكّرَ في مُساعدةِ عَمِّه ، وَكأَنَّ حِسَّهُ المرهَفَ يقـولُ لَهُ : إلى مَتى سَيُنفقُ عليـكَ عَمُّك ؟ أَلا تفكِّرُ في مـدِّ يَدِ العوْنِ لَه؟

وحقّاً : كـانَ مُحمّدٌ يفكِّـر في هٰذا بشَكْـلٍ دائِمٍ ، واشْتَدَّ التَّفكيرُ بَعْـدَ رحلَةِ الشّامِ ، ولكنْ ماذا يَسْتَطيعُ الصَّبيُّ الصَّغيرُ أَنْ يقدِّمَ مِنْ كفاحٍ في سَبيلِ العَيشِ ؟ .

حالُ مَكَّةَ

ونَظَرَ صاحبُ الحِسِّ المرهَفِ في الأمْرِ مَليّاً ، وَرأى أَنَّ مكَّةَ على حالٍ صَعْبَةٍ في عَيْشِهـا ، إنّها بَلدٌ يَعتمدُ أَكْثَرُ أَهْلِها على التِّجـارةِ ، والتِّجارةُ عَسيرةٌ يلزمُها السَّفرُ المُضني في الدُّروبِ الوَعرةِ ، وتحتاجُ لمرونَةٍ في البَيعِ والشِّراءِ ، وتدريبٍ طويلٍ ، ووَعْيٍ في العملِ .

وَمِنْ جهةٍ ثانيةٍ فإنَّ مكة قاحلةٌ جرداءُ ، لا تَعتمدُ على الزِّراعةِ أَبداً ، لا مِنْ قـريبٍ ولا مِـنْ بعيدٍ ، ولا ينبتُ فيهـا شَجرٌ أَوْ نَبـاتٌ ، يَستحقُّ

القطْعَ والتَّسْويقَ ، ومنْ جهةٍ ثالثةٍ لا ترى في مكَّةَ دُوراً للصِّناعةِ يمكنُ أَنْ يعملَ فيها الصِّبيـانُ بأجْرٍ معقُولٍ .. إذاً ما العملُ؟ لا بُـدَّ لمَنْ يريدُ العمـلَ مِنَ الصِّبيـانِ مِن أَنْ يَخرجَ إلى سُفُـوحِ مكّـةَ المجاورَةِ ، حيْـثُ الشَّوكُ والعشْبُ الأَصْفرُ ، وهناكَ يستطيعُ أَنْ يقومَ بعملِ الرَّعْيِ ، ولعلَّ هٰذا أَسْهَلُ عملٍ يُناسبُ الصِّبيانَ .

رَعْيُ الغَنَمِ

ولعلَّ في هٰـذا العملِ رغبَةً مَزروعـةً في نُفوسِ الأَنبياءِ جَميعـاً ، فما من نَبيٍّ إلا ورَعى الغَنَمَ ، وكانَ حَظُّ محمّـدٍ ﷺ عندما كان صغيراً أَنَّهُ عملَ أَوَّلَ ماعملَ في رَعْيِ الغنـمِ، لكَيْ يُساعدَ عمَّهُ أبا طالـبٍ، وكانَ يذهَبُ بالغنمِ إلى وادِي أَجيادَ قربَ جبلِ الصَّفَا أَمامَ مكّةَ يتردَّدُ عليه ، ويتعلَّقُ بِهِ لِقُـربِه مِنَ العمـرانِ ، ولا شَكَّ أَنَّ الراعـيَ الصَّغيرَ قَدْ رافَقَ الـرّعيانَ الصِّغارَ أمثـالَهُ في عَملِهـمْ ، يَخرجُ معهمْ ويَـرْجعُ معهـمْ ، ويلعبُ إذا لعبوا ، وكـانوا يجدُون فيـهِ الصّاحِبَ الخلُوقَ المؤدَّبَ ، يَرْعـى في مكانٍ تحبُّهُ الأغنامُ ، وتَلْحَـقُ بِهِ إذا سارَ ، وتُسَرُّ بالأَرْضِ التي يَرعـاها بها ، مما يجعَلُ الـرّعْيانَ يتَسابقـونَ إلى حَيْثُ يَرْعـى محمّدٌ أغْنامَ القَـوْمِ ، فيرحِّبُ محمّدٌ بهم ويستقبلُهُمْ في مكانِ رَعْيِهِ المخصَّصِ لعملِهِ ...

رِعايَةُ اللهِ

وَصحيحٌ أَنَّ محمّـداً قَدْ عمـلَ راعي غَنَم ، إلاّ انَّـه كانَ في رعـايةِ اللهِ راعي العبـادِ عزَّ وجَلَّ ، فـاللهُ تعالى لم يتركْـه يَشبُّ كما يَشبُّ الـرعاةُ في

مكّةَ ، بَلْ حَفظَهُ واعْتنى بذهابِهِ ورجوعِهِ ، لا يتركُه يَلْهُو بعاداتٍ جاهليّةٍ ، أَوْ ينحرفُ إلى المخاصَمَةِ مع الصِّبيانِ أو سبِّهِمْ وشَتْمِهِم ، أو التَّضاربِ معَهمْ ، فما عُرِفَ عَنْهُ ﷺ في صِغَرِهِ ورعيِه للغنم أنّه نازَعَ راعياً أو حقدَ على صَبيٍّ ، أَوْ حَسَدَ مُنْعماً مُترفاً ، بَلْ كانَ أَحْسنَهم خُلُقاً، وأكْرَمَهم مخالطَةً ، وأفضَلَهم عملاً وإخلاصاً ، وأرغَبَهم في الجِدِّ، وأبْعَدَهم عَن اللّهْو والفُحْشِ والأخلاقِ الرّديئةِ المدنِّسةِ ، وكانَ الصِّغارُ يُشيرونَ إلَيهِ ، ويَفهمُونَ سُموَّ خلُقِه ، ويَحسدُونَه على عُلوِّ همّتِهِ في العَملِ والرَّعيِ ، واعتمادِهِ على نَفْسِه ، فعملُهُ لم يَكُنْ إلاّ لغايةٍ شريفةٍ هيَ العونُ والمساعَدةُ لِصاحِبِ العيالِ الكثيرةِ .

نَشْأَةٌ طاهِرةٌ

برعايةِ اللهِ تعالى يا أحبّتي كانَ خُلُقُه أَحْسَنَ خُلُقٍ ، وأَدَبُه خيْرَ أدبٍ ، لذلكَ فالنَّشأةُ الطّاهرةُ لا تُوجَدُ إلاّ عند محمّدٍ اليتيمِ ، وهَلْ هناك أَحْسنُ مِنْ نشأةٍ وتربيةٍ على يديِ اللهِ ؟

لَقدْ حاوَلَ محمّدٌ في صغَرِهِ مرّةً وهو يَرعى الغنمَ أَنْ يلعبَ بالحجارةِ مع الصِّبيانِ، واللّعبةُ تحتاجُ إلى خَلْعِ الثِّيابِ وحَمْلِ الحجارةِ عليها ، وما أنْ خَلَعَ ثيابَه حَتى شعَرَ بلكمةِ عِتابٍ مع كلامٍ !! إنّهُ لم يَرَ أَحَداً لكنّه سَمِعَ العبارَةَ التّاليةَ : (شُدَّ عليكَ إزارَكَ) ، فلَبِسَ محمّدٌ ثيابَهُ ، وأتمَّ اللّعبَ دونَ أنْ يخلَعَها .

وأرادَ مرّةً أنْ يحضُرَ عُرْساً فيه سمَرٌ ومزاميرُ ، وما أن جَلَسَ لينظُرَ

ويَسْمَعَ ، حَتّى ما عادَ يَسمعُ صوتاً ، وشَعَرَ بالنُّعاسِ ، ونامَ إلى أَنْ أَتَتْهُ أشعّةُ الشّمسِ في اليومِ التّالي فأيقظَتْهُ ، وعرفَ أنّه لم يرَ ، ولمْ يَسمعْ شيئاً مِنَ العرسِ ..

أفليس في هذا رعايةٌ من اللهِ لِتبقى النَّشأةُ طاهرةً ؟.

مثالُ الكمالِ

والذي يتولاّهُ الله ، سيكونُ كاملاً في كُلِّ شَيءٍ ، ولقد كَبِرَ محمّدٌ وهُوَ معصُومٌ مِنَ الخطأِ الجاهليّ والوقوعِ في فَسادِ أَهْلِ مكّةَ الذي تعوّدَ عليْهِ الشَّبابُ والكبارُ ...

إنَّ محمّدَ بنَ عبدِ اللهِ قَدْ بلغَ سِنَّ الشَّبابِ لكنهُ لَمْ يعبثْ كما يعبثُ الشَّبابُ ، وابتعدَ بطبعِهِ عن المآثِمِ وأماكِنِ الرِّيبَةِ واللَّهوِ والفُحشِ ، فَلم يَرَهُ أحدٌ يشربُ الخمرَ مع الشّاربين، ولا يَلعبُ القِمارَ مع المقامِرين ، ولا يتلفَّظُ بألفاظِ اللاهينَ العابثينَ ، إنَّه يحمِلُ طابَعَ العفافِ ، والوقارِ ، والكَمالِ معَ ابتسامةِ الوَجهِ ، وطلاقةِ المحيّا ، وبشاشَةِ الطَّلعةِ، وجِدِّيةِ العَملِ ، وحلاوَةِ اللِّسانِ .. والكلُّ عرفَ عَنْه أنهُ يَزداد كَمالاً يوماً بَعْدَ يومٍ.. ويا هناءَةَ مَنْ يُعاشِره ، أَوْ يُحادثُه ، أَوْ يَلقاه .

الأَمينُ المحبوبُ

والنّاسُ إذا رأَوْا إنساناً بينهم . تمثَّلَ بالخُلقِ الحَسنِ ، فإنّهُمْ يُحبُّونَه ويُكبِرونه ويَصفونهُ بأحْسنِ ما يمكنُ أنْ يوصَفَ بِهِ إنسانٌ مِنْ صِفاتِ

الكَمالِ .. أَتعرفونَ بماذا لَقَّبوا (محمّداً) المحبوبَ بينَ الجميعِ ؟؟

لقَدْ لقَّبوهُ بـ (الأَمينِ)، إنَّه أمينٌ في كُـلِّ شَيءٍ، لا يكذبُ في كلامِه، ولا يغدرُ في الـوعدِ، ولا يغشُّ في المعـامَلَةِ .. (الأَمينُ) إنّهُ لقـبٌ جميلٌ لشابٍّ طاهِرِ النَّفسِ، صابرٍ، رَحيمِ القلبِ، متواضـعٍ بينَ الآخرينَ، عرفَهُ الجميعُ بعشرتـهِ اللَّطيفةِ وعقلِه الرَّاجحِ ونفسِهِ العـاليةِ وزُهدِهِ عَنِ ملذّاتِ الدُّنيا، ووجَدوا فيه مِنْ صفاتِ الخيرِ ما لَمْ يجدوا عليه أحداً مِنْ أَهلِه ولا أقرانِه ولا جيرانِهِ، بلْ ولا واحداً مِنْ أَهلِ مكّةَ كُلِّهم ..

عِصمةُ الله

وسَتُقَدِّرونَ أخـلاقَ الرَّسُولِ ﷺ يا إخـوتي إذا عَرفْتُم أنّهُ قَـدْ شاعَ في مكّةَ وجودُ شبابٍ يَفْعَلونَ المُنكـراتِ، ويتَهالكُون على الخمرِ والقِمارِ .. ويسلبُ بعضُهم بعضاً، والأكثرُ مِـنْ هٰذا يعبدونَ الأَصنامَ والأَوثانَ .. وبالنّسبةِ لهٰذهِ العبادةِ، فقَدْ عصَمَ اللهُ عبدَهُ الشّابَّ محمّداً عَنِ السُّجودِ لصنمٍ أو وَثنٍ منذُ صِغَرِه، فَلَمْ يشترِكْ مَعَ قومِهِ في احْتفالٍ، ولا قُرْبانٍ، ولا طَـوافٍ أمامَ الأَصْنـامِ، وكأنّـه اعتبرَ هٰذا العمـلَ نجساً ورِجْسـاً، وأمراً يعـافُهُ العقـلُ، ويقرَفُ منْـهُ الذَّوقُ السّليـمُ، وانحرافـاً عنِ الحقِّ وقوانينِ التفكيرِ الصَّحيحِ ..

وإنَّ هٰـذهِ العِصمةَ يـا أيها الأحبَّةُ الصِّغـارُ لهيَ مِـنْ عندِ اللهِ لجميـعِ الأنبياءِ، فَلَمْ يمرَّ على نبيٍّ منهم يومٌ عَبدَ فيه غيرَ اللهِ تعالى، لا في صِغَرِه ولا في كِبَرِه.

غَضَبُ الأَهْلِ

وعَـمُّ الرّسـولِ أبو طـالـبٍ كانَ يَـرى هٰـذا مِنَ ابْـنِ أخيه، والقـومُ يتعجَّبونَ مِـنِ ابتعادِ محمّدٍ عنِ الأَصْنـامِ، والأَهْلُ لن يَسكتوا عـنْ هٰذا السُّلُوكِ، وحدثَ أنِ انْفَجروا غاضبين عَلى الشّابِّ العاقِلِ ذاتَ مرّةٍ عندمـا أَبى أنْ يحضرَ عيداً لصنَـمِ قريـشٍ العظيمِ، وناقشَتْـه عمّـاتُه، وجادَلْنَـه جِدالاً طـويلاً، وخِفْنَ عليـهِ مِنْ غضـبِ الآلهةِ (الأصنامِ)، فذَهَبَ إلى معبدِهِمْ وغابَ طويلاً، ثم رَجَعَ فَزِعاً مَرْعوباً فسألْنَه : ماذا بِكَ ؟ فقال : إني كُلَّما أَدْنو مِنْ صنمٍ أرى رجلاً أَبيَض طويلاً يَصيحُ بي: ابتعِدْ يـا محمّدُ، لا تَقْـرَبْ من الصَّنـمِ، وهُنا لم يعـدْ مجالٌ للْعمّـاتِ أَنْ يُجبِرْنَه على الذَّهابِ، بَلْ قُلْنَ لَهُ : مـا كانَ اللهُ ليَبْتَلِيَكَ بالشَّيْطانِ وفيكَ مِنْ خِصالِ الخيرِ ما فِيكَ !!

تآلُفٌ ومَحَبَّةٌ

ومع أَنَّ محمّـداً لم يعبدِ الأَصْنـامَ، وفي هٰذا إغضـابٌ للأهْـلِ والقومِ معاً، فإنَّ الأهْلَ والقَوْمَ كانوا يأْلَفـونَه ويحبُّونَه .. إنَّهُ لم يَهربْ مِنَ العيشِ معهُمْ، بَـلْ كانَ يخالطُهُمْ، ويعاملهُـم دونَ أَنْ ينزلَ لمُستَوى أَخْلاقِهم الجافيـةِ، ولا عاداتِهم المرْذُولـةِ، وعِباداتِهم المنكـرةِ، وإنَّهُ ليُحِـبُّ أَنْ يَشْتَرِكَ معهم في الأَعمالِ الفاضلةِ التي لا تَخْلو أُمَّةٌ مِنْها ...

لقَدْ خالَفَهُـمْ في طباعِهِمُ السَّيِّئةِ، وشـارَكَهم في تَقاليدِهِـم الجيِّدةِ،

وقد سَجَّل لَهُ أهلُ مكَّةَ أُموراً أربعةً غايةً في الأهمّيةِ، زادَتْ في تقديره ومحبّتِهِ ، وهيَ أَنَّهُ شارَكَ في حربِ الفجّارِ ، وحِلْفِ الفُضولِ ، وبناءِ الكعبةِ ، والتِّجارةِ الجيّدةِ ..

حَربُ الفُجّارِ

ففي حَربِ الفجّارِ كانَ عمْرُهُ يَقِلُّ عَنِ العشرين بسَنواتٍ ، أَخذَ محمّدٌ فيها يجمَعُ النّبْلَ والسِّهامَ لأَعمامِهِ حتّى يرمُوا بها أَعداءَ قريشٍ مِنْ قبيلةِ هوازنِ الذين اسْتحلُّوا الحربَ في الأشهرِ الحُرُمِ ، وهي الأشهُرُ التي تعارفَ العربُ على حُرْمَةِ القتالِ فيها ، ولقَدْ وَجَدَ أعمامُهُ أَجْمَلَ معونةٍ مِن ابْنِ أَخيهمُ الذّي كانَ يجمَعُ لهمُ السِّهامَ ، بَلْ وأحياناً كان يرمي السِّهامَ معهم كما يَرمُون .. وقد حَصَلَ للرّسولِ في شبابِهِ خبرةٌ قتاليَّةٌ في فنونِ الحربِ ، فَحربُ الفجّارِ قد دامَتْ أربعَ سنينَ ، ولم تَنْتَهِ إلا بعدَ صُلح بين قُريشٍ وهوازنٍ ، وتَمَّ الصُّلحُ على أَنْ يَعُدَّ كُلُّ فريقٍ قتْلاهُ ، ثم يدفَعُ الفريقُ الأقلُّ عدداً في القتْلى دِيَةَ الزّيادةِ إلى الفريقِ الثّاني ..

ويتمُّ هٰذا ورسولُ اللهِ في سِنِّ شبابِهِ الأوّلِ لَم يَتجاوزْهُ .

حِلْفُ الفُضولِ

وعنْدَما بلغَ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ سنَّ العشرين شَهِدَ حِلْفاً رائعاً في غايتِهِ يُسَمّى : (حِلْفَ الفُضولِ) ، حَيْثُ نادَتْ قريشٌ إلى نُصرةِ

المظْلوم ، فاجْتمعَ رجالٌ مِنْ بني هاشمٍ وبني المطَّلبِ ، وأسَدٍ ، وزُهْرَةٍ ، وتيم ، وكُلُّها بُيوتاتٌ مَشْهورَةٌ بينَ العربِ ، اجتمعوا في دارِ رجلٍ مِنْ أَشْرافِهِم يُقالُ لَهُ : (عبدُاللهِ بْنُ جَدْعانَ) ، وهناكَ تَعاهَدوا على أَنْ لا يَجدوا بمكَّةَ مظلوماً إلا نَصَروهُ ، وكانوا معَهُ حتّى يستردُّوا له حَقَّه مِنْ ظالِمه .

وأَصْبحَ الحلْفُ أكْرَمَ تَعاهدٍ وأَشرفَه بينَ العربِ ، وقد سُرَّ محمَّدٌ بحضُورِهِ هٰذا الحلْفَ وهُوَ شابٌّ ، وكانَ في كِبرِهِ يُحدِّثُ أَصحابَهُ عنْ دارِ ابنِ جدعانَ قائلاً : (لقد شَهِدْتُ في دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جدعانَ حِلْفاً ما أُحِبُّ أَنَّ لي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ) . أَي لا يقبلُ مكانَهُ أَحْسَنَ الإبلِ والنُّوقِ ثم قالَ : (ولو دُعِيتُ بِهِ في الإسْلامِ لأَجَبْتُ) .

بِناءُ الكَعْبَةِ

وأَحْلى عَملٍ قامَ بهِ رسولُ اللهِ قَبْلَ بعْثتِه أَنَّهُ قَدْ حُكِّمَ مِنْ رِجالِ قريشٍ في بناءِ الكعبةِ ، حَيثُ أَعادَ القومُ بناءَها بَعْدَ سيْلٍ أَصابَها فهدَّمَ أَرْكانَها ، وكانَ الشّابُّ مَعَ القوْمِ يَنقُلُ الحجارَةَ ، ولما وَصلَ الجميعُ إلى مَوْضعِ الحجرِ الأَسودِ المقدَّسِ في نُفوسِهم ، اخْتَلَفوا فيمَنْ يقومُ بوضْعِهِ، واخْتَصَموا حتى هَمُّوا بالحرْبِ ، وأَنْقَذَهم أَنَّ رجلاً حازِماً منهم دَعاهم إلى تحكيمِ أَوَّلِ مَنْ يدخُلُ مِنْ بابِ البيتِ الحرامِ ، وتَمَّتِ الموافقَةُ، وكان محمّدٌ هو الدّاخلُ الأوَّلُ ، فَفرحوا جميعاً ، واسْتراحوا

لِرؤيتِهِ ، وقالوا : هٰذا الأَمينُ .. رَضِينا بِهِ حَكَماً .. إنَّهُ أَحْسَنُ حَكَم .. ونِعمَ الحكَمُ محمّدٌ الذي طلبَ مِنْهُم إحضارَ ثوبٍ فأحضَروهُ ، فَبَسَطَهُ ووضَعَ الحجرَ في وسَطِهِ ثم قالَ : (لِتأْخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ مِنَ الثَّوبِ ، ثُمَّ ارفعُوهُ جميعاً) .

ولمّا فعلوا ، أخَذَ الحجرَ فوضعَهُ في مكانِه مُنْهِياً النِّزاعَ .

التِّجارةُ ولُقمةُ العَيْشِ

والأَمْرُ الرّابعُ الَّذي شارَكَ محمّدٌ فيه قومَهُ يا أحبّائي هُوَ التّجارَةُ ، فَكانَ يعملُ كواحدٍ منهم في كُلِّ ما تُمْليه ظروفُ الحياةِ وطبيعةُ البيئةِ ، والتّجارةُ كما عَلمْتُمْ مِهنةٌ شائعةٌ في مكَّةَ ، ورئيسةٌ يشتغِلُ بها كثيرٌ مِنْ أَهْلها ، والرَّسولُ في صِغرِهِ لمْ يكُنْ لِيقدرَ عليها ، ولٰكنَّه لمّا كَبرَ اشْتغَلَ بها كما يَشْتغلُ غيرُه مِنَ الشّبابِ والرِّجالِ ، وكان له في التِّجارةِ شريكٌ يُسَمّى (السّائِبَ) وهو ذو أخلاقٍ حسنةٍ ، أُعْجِبَ بمحمّدٍ ، وأُعجبَ محمّدٌ بصفاتِه ، وقالَ عَنْهُ مرَّةً : (نِعْمَ الشَّريكُ السّائبُ .. لا يشاري ولا يُماري).

أي إنَّ السّائبَ مِنْ أَحسنِ الشُّركاءِ الذين لا يُجادِلونَ ولا يُخاصِمونَ في أَعْمالِهم أحداً ، بل يَلينونَ ويتهاوَنونَ ، وهٰكذا فلْيَكُنِ التُّجارُ والشُّركاءُ .

قِصَصُ السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ

١٠

أجمل زواج

مَوْضِعُ إعْجابٍ

عرفْتُم محمّداً يا أحبّائي في الحَلقاتِ السّابقةِ بمكانته العاليةِ بَيْنَ قَومِهِ ، وبِمرتَبَتِهِ الكريمةِ بيْنَ أهلِ مكّةَ .. الجميعُ يُجلّونَهُ ويُقدِّرونَه ، وَيُنزلونَه مِنْ أَنْفسِهم مَوْقِعَ الإكبارِ والإعجابِ والحبِّ ، ولِمَ لا يكونُ مَوضعَ إعْجابٍ ، وقَدْ رأَيْنا الجميلَ والعظيمَ مِنْ نَشْأَتِهِ الطّاهرةِ ، وكَمالِ خُلُقِه وأَمانتِهِ وإِلْفتِهِ ومحبّتِهِ لأهْلِهِ ولقومِهِ ، يَبْذُلُ نَفْسَهُ للخيْرِ ، ويُشيرُ عليهِم بما يُرضيهِمْ ويُسْعدُهم ، ويُبْعدُ عنهم كُلَّ ما تكرهُهُ النّفْسُ العاليةُ ويأْباهُ الخُلُقُ القويمُ ..

ولقَدْ عَرَفَهُ شبابُ مكّةَ (كما تُحبّونَ لأنفسكم) شابّاً رَزيناً جدّياً مُسْتقيماً ، وعُرِفَ بين رجالِها بالحزْمِ وعُلوِّ الهمّةِ وسَدادِ الرأْيِ ، بالإضافةِ إلى لُطْفِ المعشَرِ ، وحُسنِ الحديثِ ، فلا تجدُ صغيراً ولا كبيراً إلا ويحبُّ محمّداً ، ويُكْبِرُ هِمّتَهُ ويُعْجَبُ بِهِ .

وَحتى النِّساء

ولَم يَقتَصِرِ الأَمْرُ على الشّبابِ والرّجالِ فحسْبُ ، بل وحتّى النِّساءُ .. كُلُّ واحدَةٍ تراهُ يَسيرُ في سُبُلِ مكّةَ لا تستطيعُ أنْ تمنعَ عَيْنَها مِنْ نَظرةِ إعجابٍ وتقديرٍ ، ومِنْ بينِ هؤلاءِ كانَتْ هناك السيّدةُ (خديجةُ) التي يَلْتقي نَسَبُها وقَرابتُها معَ محمّدٍ ﷺ في الجدِّ الخامسِ ، فَهُوَ مِنْ بني

عُمومتِها ، رأَتْهُ فهَفا قلْبُها إلى صاحِبِ الخلقِ العظيمِ ، وراقَها مِنْهُ خُلُقُه القويُّ ، وإنَّه ليَستحقُّ منها نَظْرَةً خاصَّةً ، لأَنّها كانَتْ تقابِلُهُ في مثالِهِ الرّائعِ وشرفِهِ وطهارةِ نَفْسِه ، وجمالِ طَلْعتِهِ ، وزيادةً على ذلك كانَتْ خديجَةُ كثيرةَ المالِ وافرةَ الثّراءِ ، لَها تجارةٌ واسِعةٌ وقافِلةٌ كبيرَةٌ تعدِلُ أحياناً قوافِلَ قُرَيْشٍ مُجْتمعةً .. فهي إذاً قَدْ جمعتْ بَيْنَ الجمالِ والغِنى والشَّرَفِ والطَّهارةِ ونَظْرةِ الإعجابِ إلى قريبٍ هُوَ مَوضِعُ هذا الإعجابِ كُلِّه .

هَلْ لكَ في تجارةٍ؟

وهي في تجارتِها وقوافِلِها بحاجَةٍ إلى رجالٍ تَسْتأْجِرُهُم مِنْ أَهلِ مكّةَ ، ليُسَيِّروا لها التجارَةَ والقافلَةَ ، ويأتوها بالأَمْوالِ والأَرباحِ الوَفيرةِ . لذلك كانَتْ تختارُ لهذا الأَمْرِ رجالاً كلُّهم ثقةٌ ، وترتاحُ إليهمُ النّفْسُ وتطمئِنُّ ، وتُعطيهِمْ مُقابلَ ذلك أَجْراً على عملِهم ، والآنَ .. وقد اكتملَ شَبابُ محمّدٍ واسْتَوى عودُهُ ، رغبتْ خديجةُ إلى هذا الشّابِّ القويِّ في أَنْ يَخرجَ مُتاجِراً في مالِها .. وها هيَ ذي تُرسِلُ إليْهِ مَنْ يعرِضُ عليهِ هذه الفكْرَةَ ، ويُقْنِعُه بتلك الرّغْبةِ ، وإنّها لفرصَةٌ طيِّبَةٌ أَنْ يُعْرَضَ على محمّدٍ هذا العملُ من امرأةٍ تملكُ مالاً طاهِراً وشَرَفاً أطْهرَ ، وشُهرةً تجاريّةً كُبرى ، وصفاتٍ رائعةً جليلةً ، وها نَحْنُ أُولاءِ نراهُ يَقْبَلُ منها ذلك ، ويأْخُذُ في المتاجرةِ لها ، مع شريكِهِ السّائِبِ أَحْسَنِ الشّركاءِ الذي حَدَّثَنا عنه قُدوَتُنا محمّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ .

العطاءُ الجزيلُ

وعِنْدَما يَحكي لنا محمّدٌ ﷺ قصّةَ تجارتِهِ لخديجةَ كانَ يعقّبُ ذٰلكَ بِذكرِ ما يَنالُه معَ شريكِهِ عنْدَها مِنْ تُحَفِ الطَّعامِ الذي تُخبِّئُهُ لهما بَعْدَ عودتِهِما بالمالِ، ولا شَكَّ أَنَّ خديجةَ يا أحبّائي قَدِ ارْتاحَتْ إلى هٰذا التّاجرِ الشّابِّ ولَمَسَتْ فيهِ ما كانَ يَبْلُغُها عنه مِنْ صِدْقِ حديثِهِ، وعِظَمِ أمانتِهِ، وكرمِ خلقِهِ، فَنَزَلَ مِنْ نَفْسِها منزلَةَ الإعجابِ والرِّضا.

ولما كانت ترغَبُ في دوامِ هٰذه العلاقَةِ والتجارةِ، لِذٰلك جَعلَتْ تجزلُ لَهُ العطاءَ، وتضاعِفُ لَهُ الأَجْرَ حِرصاً على إبقاءِ مودَّتِهِ، وحُسنِ صُحبتِهِ. ومَعَ هٰذا العطاءِ الجزيلِ وهٰذا الأَجرِ المضاعَفِ كانَ محمّدٌ ﷺ مُتجمِّلاً بالحياءِ، لا يطلُبُ زيادةً ولا يردُّ المالَ وإنْ قَلَّ. ويفرحُ عمُّهُ أبو طالبٍ عندما تَزيدُ خديجةُ لابْنِ أخيهِ، ويقولُ لهُ: (هٰذا رِزقٌ ساقَهُ اللهُ إليك).

إلى رِحلَةِ الشّامِ

ويبلُغُ التّاجرُ الشّابُّ خَمْساً وعشرين سنَةً، وترغَبُ خديجةُ في أَنْ يكُونَ هُوَ الّذي يُسافرُ بتجارَتِها إلى الشّامِ، وهُنا تَبرزُ أمامَها مُعضِلةُ السَّفرِ، فأبو طالبٍ لنْ يُوافقَ على ابتعادِ ابْنِ أَخيهِ عنْهُ، ولا سيّما بعْدَ أَنْ نَصَحَ له بذلك الرّاهبُ بحيرا في الذّهابِ الأخيرِ إلى الشّامِ !! إذاً .. ما العملُ ؟

الحذرُ مِنَ السَّفرِ شَديدٌ، وقَد يُعرِّضُ محمّداً لمخاطِرَ لا يَحتملُها !!

أَخذَتْ خديجةُ بالتَّدريجِ تُقنِعُ أبا طالبٍ أَنْ يَأْذَنَ لابْنِ أَخيهِ في الرِّحلةِ إلى الشّامِ مَعَ غُلامِها مَيْسرةَ، على أَنْ تعطيَهُ ضِعفَي ما تُعطي متاجِراً آخَرَ. ولمّا كانَتِ السَّنواتُ مُجدِبةً، وأَزْمةُ القومِ شديدةً، قَبِلَ العمُّ أبو طالبٍ واستجابَ، وَعَرَضَ على ابنِ أَخيهِ أَنْ يذهَبَ في تجارةِ خديجةَ إلى الشّامِ، ويقبلُ محمّدُ بنُ عَبدِاللهِ بدوْرِهِ هٰذا العَرضَ، ويُبالغُ أعمامُهُ في التَّوصيةِ، ويتمُّ السَّفرُ ..

رِبْحٌ وَفيرٌ

والطَّريقُ طويلَةٌ، والسَّفرُ شاقٌّ .. انْطلقَتِ القافلَةُ في الصَّحْراءِ المُترامِيةِ، تمْشي في الدُّروبِ الوَعِرةِ، والشَّمْسُ تلْهبُ الأَجسامَ، وتَشْوي الوُجوهَ، وتصِلُ إلى الشّامِ بعدَ أَنْ أَعْياها السَّيْرُ، وأَجْهدَها الحَرُّ، وباعَ ﷺ سلْعَتَه وبضاعَتَهُ، واشْترى ما أَرادَ أَنْ يَشتريَ، ثم جَهَّزَ نَفْسَهُ وعادَ أَدْراجَهُ معَ مَيْسرةَ إلى مكّةَ، حيْثُ تَنتظِرُ خديجَةُ مالم تكُنْ تتوقَّعُهُ..

الرِّبحُ وفيرٌ يفُوقُ أَضْعافَ أَضْعافَ ما كانَتْ تربَحُ، وها هيَ ذي بدوْرِها تقابِلُ هٰذا الرِّبحَ الكَثيرَ بمضاعَفةِ أَجرِ مُحمّدٍ ﷺ مرّاتٍ عَنْ طيبِ نَفْسٍ. وحدَّثَ ميْسرةُ سيِّدتَهُ بما رَأَى مِنْ إرْهاصاتِ النُّبوّةِ، وبما رَأى مِنْ مُحمّدٍ أَثناءَ رِحلتِهِ مِنْ كَرَمِ الخُلُقِ، وحُسنِ الصُّحبةِ، وعِظَمِ الأَمانَةِ، وبما لَمْ يَرَ مِثْلَهُ مِنْ صاحبٍ قطُّ في أَثْناءِ رِحلتِهِ .. وإنه لحديثٌ شيِّقٌ زادَ مِنِ احْترامِ خديجَةَ لمحمّدٍ، وضاعَفَ مِنْ مكانتِهِ العظيمةِ في نفْسِها..

مَكانةٌ عاليةٌ

وكأنَّ اللهَ قَدْ أرادَ لها بذلك أَنْ تُدرِكَ مكانةً عاليةً بَيْنَ قَوْمِها، وتَتفتَّحُ نَفْسُها على أماني جديدةٍ تفوقُ كُلَّ أمنيةٍ، إنَّها صاحبةُ الشَّرفِ والمالِ.. وإنَّ أَشْرافَ القومِ يحرصونَ على الزَّواجِ مِنْها، ولكنَّ خديجةَ كانتْ تردُّهمْ، وتأبى عليهم ما يُريدونَ، وما ذلك إلاّ لأمرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ، فيهِ الخيرُ وفيهِ الكرامةُ، إنّهُ قَدْ أَلْقى في نَفْسِها أُمنيةً كريمةً، وبَعَثَ في قَلْبِها محبّةً أحسّتْ بها نَحْوَ التّاجرِ الأمينِ. وزادَ في الأَمْرِ ما ذَكَرَهُ ميسرةُ مِنَ المكارمِ والفضائلِ ولا سيّما وأنّها سمعَتْ مِنِ ابْنِ عَمِّها (ورقةَ بْنِ نَوْفَلٍ) أَنَّ نبيّاً سيظْهرُ، لقد رأتْ أنَّ محمّداً أَجْدَرُ مَنْ يكونُ لهذِهِ النُّبوّةِ، وكلُّ هذا يَبْعَثُ في النَّفسِ طمأنينةً، ويُعْلي محمّداً مكانةً فوقَ مكانتِهِ، فما المانعُ أَنْ يكونَ محمّدٌ زَوْجَها، وتكونَ هي زوجةً لَهُ؟ فكّرَتْ في هذا، وملكَ الأَمْرُ عليها عاطفتَها، فلا بُدَّ منْ عَرْضِ الأمرِ!!

ما رأيُكَ في الزَّواجِ؟

وعرْضٌ كهذا يتطلَّبُ جُرأةً وحكمةً، إنَّهُ مِن امْرأةٍ تسْمُو عَنْ كُلِّ النِّساءِ، إلى رَجُلٍ يفوقُ كُلَّ الرِّجالِ، ومِنْ طريفِ الأمرِ أنَّ خديجةَ قد أَرسلَتْ واحدةً مِنْ معارِفِها تَستوضِحُ فيه رأيَ محمّدٍ فيها، وفي الزَّواجِ منها، فيمتنعُ الشّابُ أوّلَ الأمرِ، ويعتذرُ لِقلّةِ مالِه، وضيقِ سَعَتِه، فتقولُ لَهُ صاحبةُ خديجةَ: (وإنْ دُعيتَ إلى مَنْ يكفيكَ ذلكَ؟ إنني أدعوكَ إلى الجمالِ والمالِ والشّرفِ والكفاءةِ) فيقولُ: فمَنْ هي؟ قالَتْ: إنّها خديجةُ..

ويَسْتغربُ محمّدٌ الأمْرَ! . وأنّى لهُ أَنْ يطلُبَ زوجةً كهذهِ في مكانتِها وغِناها، لكنَّ الأَمْرَ يهونُ، وتقولُ له سائلتُهُ: أنا أكْفيكَ ذلكَ، واتْرُكْ هذا عَلَيَّ، وأنا أفعلُهُ. وعادَتْ إلى خديجةَ وأَخْبرَتْها بأَنَّ الأُمْنيةَ قَدْ قطعَتْ شَوْطاً جميلاً في تحْقيقِها، وأَنَّها قَدْ لمسَتْ مِنْ محمّدٍ قبُولاً وَللهِ الحَمْدُ.

سنُعطيه خديجةَ

وأمامَ حادثٍ كهذا ليسَ لحبيبِ اللهِ إلاّ أنْ يستشيرَ أعمامَهُ، ويُسِرَّ لهمْ بما رأتْهُ خديجةُ، وتعرِضُ خديجةُ الأمْرَ على عمِّها، لكي يزوِّجَها، ويجتمعُ الطّرفانِ، ويقومُ أبو طالبٍ طالباً يَدَ خديجةَ مِنْ عَمِّها لابْنِ أَخيهِ، ذاكراً ما اتّصفَ بهِ محمّدٌ مِنَ الشَّرفِ والعقْلِ والنُّبلِ، ويحدِّدُ المهرَ بعدَ ذلك، ويَردُّ عليه عَمُّ خديجةَ بأَنَّ محمّداً ليْس غريباً عنهم، وأَنَّه نِعْمَ الزّوجُ لخديجةَ، وطَلَبُهُ لا يُرَدُّ، فهُوَ طلبٌ كريمٌ، ومِنْ رجلٍ كريمٍ، ويَنْفَضُّ المجلسُ عَنْ موافقةٍ تامَّةٍ بيْنَ الطَّرفينِ وابتسامةٍ حلوةٍ على ثَغْرِ الأَهْلِ والعروسيْنِ. وسرْعانَ ما ينتشِرُ الخبرُ الكريمُ بيْنَ أَهْلِ مَكّةَ، ولسانُ حالِ كلِّ واحدٍ يقولُ: لقد أَحْسَنَتْ خديجةُ واللهِ، ولنْ تجدَ خيراً مِنْ هذا الرّجلِ، وقَدْ نَعِمَ محمّدٌ واللهِ، فلَنْ يجدَ رُكناً وموْئلاً كخديجةَ.

الزَّواجُ السَّعيدُ

وصحيحٌ يا أحبّائي كلامُهم، وأنْتُم ترونَ معِيَ أَنَّ زَواجاً كهذا لا بُدَّ مِنْ أن يكونَ سعيداً جدّاً، فهوَ قَدْ جَمَعَ بيْنَ ريحانتيْنِ كريمتيْنِ مِنْ مَكّةَ،

وقد تحقّقَتْ أُمنيةُ خديجةَ بهٰذا الزَّواجِ الكريم ، فكانَتْ معَ زوجِها أَسْعَدَ زَوْجيْنِ في مكّةَ ، واشتدَّتْ بزواجِها قرابةُ الزَّوْجِ مِنْها ، وأَصبحَتْ على مَقربةٍ منْهُ ، سَترى ما حدَّثَها بِهِ ميْسَرَةُ بِعَيْنِها ، وستفكِّرُ في معاني هٰذِهِ المكانَةِ العاليةِ التي أَنْعَمَ اللهُ عليْها وعلى زَوْجِها .

ومما زادَ في سعادةِ الزَّوجينِ أَنَّ خديجةَ التي تكبُرُ زَوْجَها قَدْ عوَّضَتْ لمحمّدٍ ﷺ حَناناً وعَطفاً كبيرَيْن ، وجعَلَتْهُ أَكْثَرَ اسْتقراراً وطُمأنينةً .. وكلُّ هٰذا كانَ قَد افتقَدَهُ الزَّوْجُ الكريمُ وهو صغيرٌ ، لا سيّما بعدَ فَقْدِ أُمِّهِ آمنَةَ التي تُوُفِّيَت وهو في السّادسةِ مِنْ عمرِهِ .

روائعُ خديجةَ

وعاشا معاً زوجيْنِ هانئَيْن ، وازْدادَ حُبُّ محمَّدٍ لخديجةَ ، فقدْ كانَتْ نِعْمَ الزَّوْجَةُ ، تحنو عليهِ ، وتُغْنيه مِمّا أَعطاها اللهُ ... فيجدُ محمّدٌ عنْدَها السكينةَ وَقْتَ قَلَقِهِ واضْطرابِهِ ، ويَسْتمدُّ منها القوّةَ عنْدَما يقعُ في ضعفٍ وخَوْفٍ... إنّها الزَّوْجةُ الصّالحةُ التي أَغْنَتْهُ بمالِها ، وغمَرَتْهُ بإخلاصِها ، وملأَتْ نفسَهُ عزماً وقوّةً ، وعَمرَتْ قلبَهُ طُمأنينةً وسَكينةً ، ولهٰذا فلا غرابَةَ أَنّها ستكونُ دعامَةً رائعةً حين يندفعُ بعْدَ سنواتٍ في رسالتِهِ يُبلِّغُها ويدْعُو النّاسَ إليها ، ويُقاومُ أعداءَ الحقِّ .. وكلُّ هٰذا جَعَلَ خديجةَ رائعَةً بيْنَ النِّساءِ ، وسامِيةً على الزَّوْجاتِ ، ويشاءُ اللهُ أنْ تَنْعم هٰذه الأسرةُ النّاشئةُ بثمراتِ الزّواجِ الطيِّبِ، وما أجملَ نعمةَ اللهِ تُكلِّلُ هٰذا البيتَ باليُمْنِ والبركَةِ ، وتجعلُ العروسيْنِ يحْلمانِ بالأولادِ

الصِّغارِ والنَّسْلِ الكَريمِ .

أوْلادٌ مُكْرَمونَ

ويتحقَّقُ حلمُهما ، ويُؤتي الزَّواجُ ثمارَهُ الطَّيبةَ ، وتَتابعُ الزَّهراتُ صغيراتٍ مُتفتِّحاتٍ ، ويُكْنى الحبيبُ محمّدٌ بأبي القاسِم ، فابْنُهُ القاسمُ أوّلُ الصَّبيَّيْنِ اللّذَيْن رزقَهما اللهُ لَهُ . وللقاسِمِ أخواتٌ أربَعُ ، جِئْنَ إلى الدُّنيا لِتقرَّ عَيْنُ الأبِ بذُرّيَّةٍ مباركَةٍ طيِّبةٍ ، أكبرهُنَّ زيْنبُ ثمَّ رُقيَّةُ ، ثمّ أمُّ كلثوم ، وختامُهُنَّ فاطمةُ الزّهراءُ .. وقدِ استقبلَتْ خديجةُ الوَدائعَ الغاليةَ بِنفسٍ طَيِّبةٍ ، وجعلَت اسمَ آخِرِ أولادِها (عبْدَاللهِ) ، ولقَّبَه أبوهُ (الطَّيِّبَ والطّاهِرَ) وهما لقبانِ جميلانِ أَضْفيا على البيتِ جَمالاً وزينَةً .. جعلَنا اللهُ من الطَّيِّبين الطّاهرين . ولٰكنْ أتعلمونَ أنّهُ لم يَعِشْ مِنْ هؤلاءِ الأولادِ المكْرمينَ سوى البناتِ ؟ فقَدْ ماتَ القاسمُ وعبدُ اللهِ صغيريْنِ ، وبقيتَ البناتُ حتّى كبرْنَ وتزوّجْنَ .. وكلُّ هٰذا مما يَشاءُ اللهُ وَيُقدِّرُهُ .

حُبٌّ لا يموتُ

وكثيراً ما كانَ يذكُرُ ﷺ خديجةَ وفضائلَها ، ويتحدَّثُ بروائِعها ، حامِداً اللهَ على أنْ أكرَمَهُ بها زَوْجَةً طاهرةً ، وأنْعَمَ عليهِ منْها بأولادٍ وذُرّيَّةٍ طاهرةٍ ، وبقيَ على ذٰلك حتّى بعْدَ وفاةِ الزَّوْجَةِ الكريمةِ ، بَلِ اشْتدَّ ثَناؤُهُ عليها بأحْسنِ الثّناءِ ، وكان يقولُ : (ما أبْدَلَني اللهُ خيراً

منها، فقدْ آمَنَتْ بي إذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وصَدَّقَتْني إذْ كذَّبني النّاسُ، وآسَتْني بمالِها إذ حَرَمَني النّاسُ ، ورزقَني اللهُ وَلَدَها إذْ حَرمَني أولادَ النِّساءِ)...

يَقصدُ بذٰلك مَنْ تزوَّجَهُنَّ بعدَ وفاةِ خديجةَ أمثالَ عائشَةَ وحَفْصَةَ ..

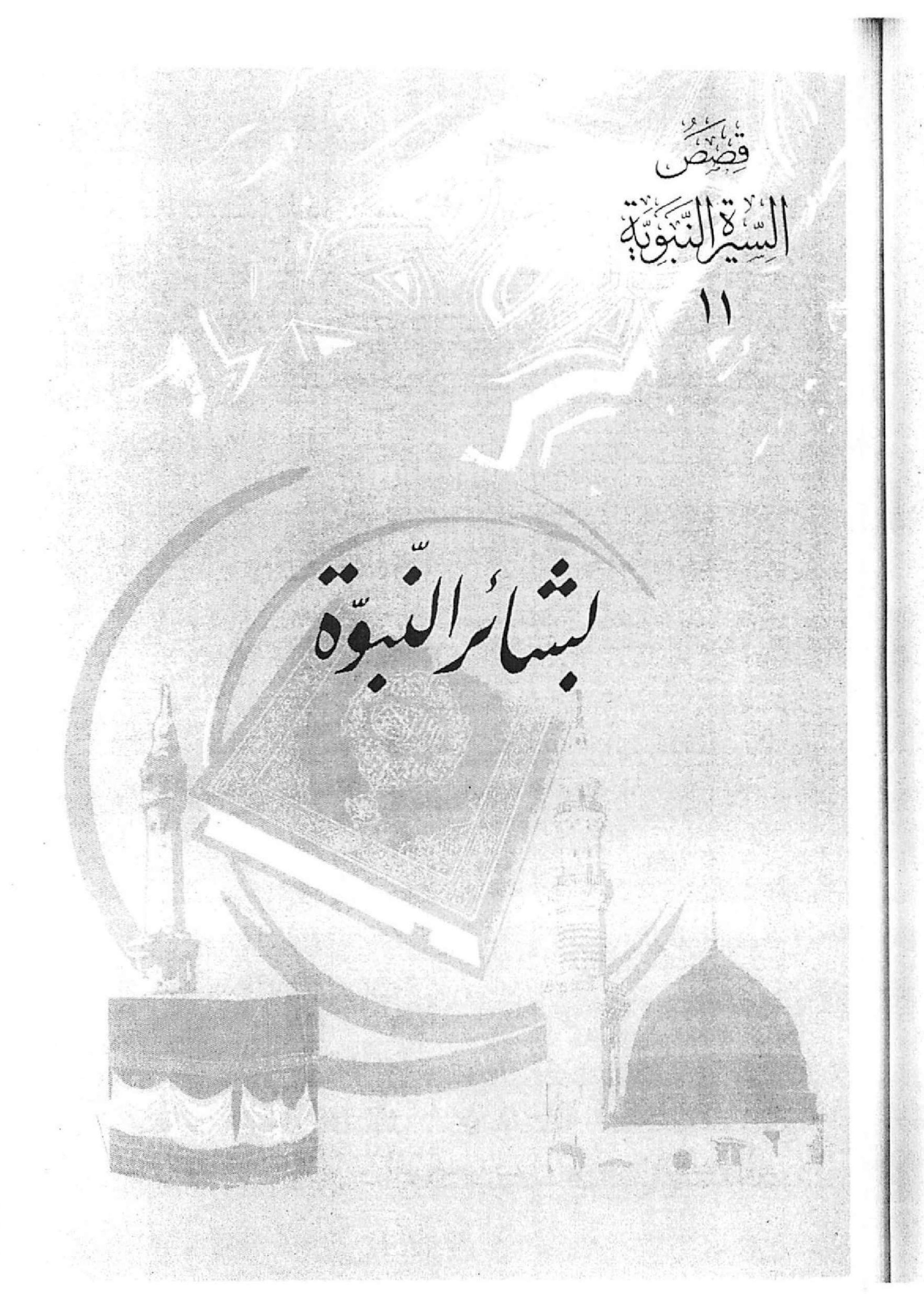
ولذٰلك يا أحبّائي ، تركَتْ خديجةُ في حياةِ النَّبيِّ أَعْظَمَ الأَثرِ ، فَلَيْسَ عَجَباً أَنْ يَمْتلِئَ قَلْبُهُ بحبِّها هٰذا الامتلاءَ ، وأَنْ تَفيضَ عواطفُهُ كلَّما ذَكَرَها بالحمْدِ والثَّناءِ .

متى يَتَحقَّقُ الأَمْرُ العظيمُ ؟؟

ونَعُودُ إلى الزَّوجينِ السَّعيدَيْنِ ...

وَخديجةُ الآنَ تَتوقّعُ أمْراً عظيماً ، تَرى ملامحَهُ في زَوْجِها محمّدٍ ﷺ ، وتنتظِرُ أنْ يَتحقَّقَ هٰذا الأمرُ في زَوْجِها دونَ أَزْواجِ النِّساءِ ، وقَدْ أَحبَّتِ الزَّواجَ منْهُ لِما رأَتْه في محيَّاهُ مِنْ علاماتِ الكرامَةِ وبشائرِ الرِّفعةِ .. إنَّ بيْن عينيْهِ لنوراً يشعُّ ، وها هي ذي قَدْ حظِيَتْ بصاحِبِ هٰذا النُّورِ . وفي كلِّ يوْمٍ تسائِلُ نَفْسَها : متى سَينجلي هٰذا النُّورُ عَنْ حقيقةٍ كُبْرى يَنْتظرُها منه الجميعُ ، وترقَّبُهُ زوجتُهُ على أحَرّ منَ الجمْرِ؟ متى سيتحقَّقُ الأمْرُ العظيمُ الذي يَتَراءى نورُه على وَجْهِ الزَّوْجِ الكَريمِ؟..

لنتابعِ القصَّةَ يا أحبَّتي .. وسنصلُ معَ خديجةَ إلى صَوابِ نَظْرتِها وصحَّةِ رَأْيِها وتحقيقِ رُؤْياها ..



الرَّسُولُ الخاتمُ

قَبلَ أَنْ نَسْتَمِرَّ في سلسلتِنا يا أحبّائي الصّغارَ ، أحبُّ أنْ أذكِّرَكمْ بأنَّنا لا ندرسُ نبيّاً لَهُ صفاتُ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الأنبياءِ فحسْبُ ، بَلْ إنَّنا مَعَ نبيٍّ هو خاتَمُ الأنبياءِ ، ورسولٌ هُوَ آخرُ الرُّسلِ ، وقد تحدَّثَ الأنبياءُ السّابقونَ عَنْ صفاتِهِ الخاصَّةِ ، وشَهِدَ لَهُ التّاريخُ ببشائرَ ودلالاتٍ سَنَعْرِفُها في هٰذه الحلقَةِ ..

إنَّ جميعَ الكتبِ السَّماويّةِ التي أُنْزِلَتْ قبلَ سيِّدنا محمّدٍ ﷺ قَدْ أشارَتْ إلى رسولٍ خاتَمٍ ، يرسلُهُ اللهُ إلى النّاسِ كافَّةً ، ويجمعُهُمْ على دينٍ واحدٍ ، بينما كانَ كلُّ رسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ السّابقينَ يُرسَلُ إلى أمّتهِ وقومِهِ .. والآنَ نَحْنُ أمامَ رسولِنا الحبيبِ المُرسَلِ إلى كافّةِ الشّعوبِ والأُممِ ، ليكونوا أُمَّةً واحدةً على دينٍ ومنهاجٍ واحدٍ في ظلِّ الحُبِّ والأمْنِ والسّلامِ والتّراحُمِ ...

في التَّوْراةِ والإنجيلِ

والجَميلُ في الأمرِ أَنَّ الرُّسُلَ بعْدَ أَنْ عَلِموا بأَمْرِ هٰذا الرّسُولِ الخاتمِ ، أَخذَ اللهُ عليهمُ المواثيقَ والعُهودَ أَنْ يؤمنوا بِهِ ، ويَنْصروه إذا أَدْرَكَهم زمانُهُ ، وقد جاءَ في التّوراةِ التي أُنزِلَتْ على موسى ، وفي الإنجيلِ الذي أُنْزِلَ على عيسى ، وَصْفُ هٰذا النبيِّ ، ووصفُ المبادئ السّاميةِ التي سيأْتي بها القرآنُ الكريمُ مِنْ أمْرٍ بالمعروفِ ، ونهيٍ عنِ المنكرِ ، وإحلالِ

الطّيّباتِ ، وتحريمِ الخبائِثِ ، وأنَّ هناكَ أغلالاً مِنَ الظُّلمِ والشِّركِ سَتُوضَعُ عنِ البشرِ والنّاسِ أجمعينَ ، فمنْ آمَنَ بهِ فَهُوَ السَّعيدُ ، ومَنِ اتَّبعَهُ فقدِ اهْتَدى ، وذَكَرتِ الكتبُ السّماويّةُ أيضاً وَصْفَ أَصْحابِ محمّدٍ ﷺ وأتباعِهِ بأنّهم أشدّاءُ على الكفّارِ ، رُحَماءُ فيما بينَهم ، يسجُدونَ ويركَعُونَ ، ويبْتغونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهم ورضْواناً : (ذٰلك مَثَلُهُمْ في التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ في الإنْجيلِ) .

دُعاءٌ وَبُشْرى

وَتَذْكُرونَ يا أحبّائي أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ عندَما انتهى مِنْ بناءِ الكعْبةِ دَعا مَعَ ابْنِهِ إسْماعيلَ هٰذا الدُّعاءَ الجميلَ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ . وهٰذا الدُّعاءُ مِنْ أجْلِ (أَهْلِ مكّةَ) الذين يعيشونَ حَوْلَ البيتِ الحرامِ ، وإنَّ اللهَ سيُلبّي دَعْوةَ إبراهيمَ ، وسيكونُ محمّدٌ مِنْ أهلِ مكّةَ إجابةً لدعوةِ إبراهيمَ . وإذا راجَعْنا قِصّةَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ وَجَدْنا تأكيداً لهٰذا حيْثُ بَشَّرَ عيسى قومَهُ بسيِّدنا محمّدٍ ﷺ وسمّاهُ (أَحْمَدَ) ، وإذا فتحْنا المصحَفَ على سورةِ الصَّفِّ رأَيْنا الآيَةَ السّادسةَ منها تقولُ على لسانِ عيسى عليه السَّلامُ : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ صدقَ اللهُ ، وصدقَ إبراهيمُ ، وصدقَ عيسى بنُ مريمَ .. عليهما السّلامُ.

الأَحبارُ والرُّهْبانُ

ولَمْ يقتصِرِ الأَمْرُ على تبشيرِ الكُتبِ السَّماويةِ ، بَلْ إنَّ هُناكَ دلائلَ وإرهاصاتٍ ومقدّماتٍ تدلُّ على قُرْبِ زمانِ هٰذا النبيِّ المنتظَرِ ، فها هُم أُولاءِ أحبارُ اليهودِ ، ورهبانُ النَّصارى ، يتحدَّثُون بأنَّ رسولاً مُرتقباً قَدْ آنَ بعثُهُ في أرضِ العربِ، فَرَغِبَ بَعْضُ الْعَرَبِ أنْ يكونَ ابْنُهم هُوَ هٰذا النبيُّ المنتظرُ ، فسمّاهُ محمّداً على أَمَلِ تحقيقِ الأمنيةِ فيهِ ، وما هٰذا إلا نتيجةٌ لما يسمعُهُ العربُ في حروبِهم وتجاراتِهم، ولقاءاتِهم مع اليهودِ والنَّصارى الذين يَرْوُون البشائرَ على لسانِ أحْبارِهم ورهبانِهِمْ، وما كان لِلرّهبانِ والأحبارِ أنْ يُبَشِّروا إلا بما تواتَرَ ذِكْرُهُ في كتبِهِمْ ، وظهرَتْ علائمُهُ في الأَرضِ تدلُّهُمْ على ذٰلِكَ ..

إذاً ، فالكلُّ يطمَعُ .. والكلُّ ينتظرُ .. والكلُّ يحسبُ الحسابَ لِلّقاءِ الكبيرِ .. ولِلْحدثِ الجليلِ .

سَلْمانُ الفارِسيُّ

وسلمانُ الرّجُلُ الفارسيُّ الذي عرفَ دينَ والدِهِ المجوسيِّ عابِدِ النّارِ خَيْرَ معرفةٍ ، وخَبِرَ الكنائسَ النّصرانيّةَ ورهْبانَها ، وعاشَ مع أهْلِ دينِهِمْ، وعرفَ مساوِئَ أَساقِفَتِهِمْ ، وتقلّبَ بين المحْسِنين منهم في مَعابِدِهم ، وسارَ في البلدانِ يتلمَّسُ الخَيْرَ تبعاً لنصائحِهم ، ومما نَصَحَ بعضُهم لَهُ أَنَّ زمانَ نبيٍّ منَ العربِ قَدِ اقْتَرَبَ ، ولَهُ علاماتٌ لا تَخْفى ،

وبَيْنَ كتفيْهِ خاتمُ النّبوّةِ ، ولقد حبَّبوا لسَلْمانَ أَنْ يسكُنَ أرضَ العربِ ، فنفَّذَ سَلْمانُ ما سمعَهُ مِنْهُمْ ، وجاءَ إلى بلادِ العربِ ، تَتَردَّدُ على مسامِعِهِ بشاراتُ زمنٍ جديدٍ ، ومولودٍ جديدٍ ، وعاشَ سلمانُ زمناً طويلاً اسْتَطاعَ خلالَهُ أَنْ يتعرَّفَ على الرّسولِ ، ويؤمنَ بِهِ نبيّاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ويشهدَ معَهُ أكْثَرَ غزواتِهِ .. رضيَ اللهُ عَنْ سلمانَ ، ذي الهمَّةِ العاليةِ ، الباحِثِ عن الحقِّ دونَ تقليدٍ أعمى ، ولا وراثةٍ جاهليّةٍ ...

الكُهّانُ العربُ

ومَع صنفٍ مِنَ النّاسِ كانَ لَهُمْ تأْثيرٌ كبيرٌ في بثِّ الجهْلِ .. يسمّونَ أنْفُسَهم بالكهّانِ .

وإذا ما تَتَبَّعْنا أحاديثَ كهّانِ العربِ وجَدْناهم يعرفونَ كذٰلك شيئاً مِنْ بشاراتِ نبوَّتِهِ ﷺ ، ومعَ أنَّهم يخلطونَ الحقَّ بالباطلِ ، ويسمعُون مِنْ شياطينِ الجنِّ بعضَ أخْبارِ السَّماءِ ، ويُخْبِرون النّاسَ أنَّ أمْراً قَدْ حدَثَ ، وآنَ وَقْتُ ظهورِهِ على الأَرْضِ بعد أَنْ ظَهَرَتْ دَلائِلُهُ ، إلا أنَّ النّاسَ والعربَ لَمْ تكُنْ تُلْقي بالاً لِذٰلك حتى تمَّتِ البعثةُ ، ووقعَ ما حدَّثَ بِهِ الكهّانُ وغيرُهُم ، وما انتظرَهُ سلْمانُ والأحبارُ والرّهْبانُ . وقبْلَ مبعثِهِ ﷺ حُجبَ بيْنَ الشَّياطينِ وبيْنَ سماعِ أخْبارِ السَّماءِ ، ولَمْ يَبْقَ للشَّياطينِ إلا الشُّهبُ تحرسُ السَّماءَ وأخبارَها ، وترْصُدُ كُلَّ شيطانٍ يريدُ أنْ يسْترقَ السَّمعَ للكاهناتِ والكهّانِ .

سَوادُ بْنُ قاربٍ

وقِصَّةٌ طَريفَةٌ نَخْتِمُ بِها البشائرَ هي قصَّةُ سوادٍ الذي أَسْلَمَ ، وها هوذا يحدِّثُنا عنْ حالتِهِ قَبْلَ مبعثِ الرَّسولِ ، وعما عرفَهُ منْ دلائِلَ على هٰذا الحدثِ العظيمِ . وممّا جاءَ مِنْ وَصْفِهِ لنَفْسِهِ : أَنَّهُ قَدْ كانَ قريباً من اعْتقاداتِ الكُهّانِ ، ولَهُ مِنَ الشَّياطينِ مَنْ يُوصلُ لَهُ الأَخْبارَ ، وقَدْ أتاه صاحبُهُ الجنّيُّ وهُوَ يذكُرُ لَهُ : بُعِثَ رسولٌ مِنْ لؤَيِ بْنِ غالبٍ يدعُو إلى اللهِ وإلى عبادتِهِ ، أيْ : إنَّ الرّسولَ المنتظرَ هُوَ مِنْ آلِ هاشِمٍ ، وكرَّرَ ذٰلك ثَلاثَ مرّاتٍ ، ودبَّ في قلْبِ سوادٍ قلقٌ وشكٌّ ، ودارَ يبحثُ عن الحقِّ حتّى أتى الصَّحابةَ معَ رسولِهم ، فحدَّثَهمْ بالخبرِ ، ففرحُوا ، وأعْلَنَ إسْلامَهُ ، وقالَ : (نِعْمَ العِوضُ كتابُ اللهِ عَنِ الجنِّ) . إنَّهُ خبرٌ طريفٌ يدلُّنا على معتقداتِ العربِ قَبْلَ الإسْلامِ ، وعن قيمةِ ما عوّضَهُمُ اللهُ بِهِ عَنْها .

عَقائِدُ السُّوءِ

لَقَدْ وَصَلَ النّاسُ أيُّها الأحبّةُ الصِّغارُ قبلَ نبوَّةِ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ إلى دَرْكٍ مهينٍ مِنَ الفسادِ والانحطاطِ ، فمنهمُ البوذيُّون الذي يعبدون (بُوذا) ، والهنْدوسُ الذين عَبَدُوا البقرَ ، ومنْهُمُ المجوسُ عبدةُ النّارِ ، وهناكَ أُمَمٌ تعبدُ الملائكةَ والجنَّ ، وأمَمٌ تعبدُ الصُّورَ والتّماثيلَ ، وأممٌ تعبدُ أرْواحَ الموتى وآثارَهُم ، وغيرُهُم يعبدُونَ مظاهرَ كونيّةٍ مِنْ شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجومٍ ، وأشْجارٍ ، وأنْهارٍ ، وحجارةٍ ، وأمّا اليهودُ فقدْ قالتْ:

(عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) ، وقلَّدَتْها النَّصارى فقالتِ : (المسيحُ ابْنُ اللهِ) . وعمَّ الفسادُ في الأَرْضِ ممّا عبدَهُ النّاسُ ، وبهٰذا بلَغُوا درجةً مِنَ الظُّلمِ والكُفْرِ والجهْلِ ، وتَفرَّقَ أهْلُ كُلِّ دِينٍ إلى مذاهِبَ وفئاتٍ ، واشتدَّ الخلافُ والجدَلُ والخلْطُ والتَّناقُضُ .

إشْراكُهُمْ باللهِ

ومِنْ هؤلاءِ الفاسِدينَ كانَ العربُ يا إخْوَتي ، فقَدْ ساءَتْ حالُهُمْ ، واشتَدَّ إمعانُهُمْ في الجهالةِ والضَّلالَةِ ، وأشْركوا باللهِ تعالى ما لَيْسَ لهمْ بِهِ دليلٌ ، وعبدوا الأصنامَ والأوْثانَ ، والأنْصابَ ، والملائكَةَ ، والجنَّ ، وأصْبحَ إيمانُهم باللهِ مَشوباً ومشَوشاً مُضْطرِباً ، يشركونَ بهِ آلهةً صُغْرى يتقرّبونَ بها إلى اللهِ الإلٰهِ الأكْبرِ حسبَ اعْتقادِهِم، وبالَغُوا في عبادتِهِمْ للأَصْنامِ حتّى مَلَؤُوا بها البيتَ الحرامَ الذي بَناهُ إبراهيمُ لعبادةِ الله وحْدَهُ دونَ إشراكٍ . وبلغَ عددُ الأصْنامِ (٣٦٠) صنماً ، ولها رؤَساءُ ثلاثةٌ : (هُبَلُ واللّاتُ والعُزّى) . واسْتَخْدموا في استخارتِها (الأزْلامَ) ، ورضوا بها حَكَماً للخيرِ والشَّرِّ ، وقَدْ مَرَّ معنا في بدايةِ السِّيرةِ كيْفَ أنَّ عبدَ المطّلبِ اسْتَخْدَمَ القداحَ (والأزلام) في فداءِ ولدِهِ عَبْدِ اللهِ ... أتذكرونَ؟

آمَنوا بالخرافَةِ

ومنَ الطَّريفِ المضحكِ أَنّهم ادَّعوا بأَنَّ الملائكَةَ بناتُ اللهِ ، وأنَّ اللهَ تزوَّجَ مِنَ الجنِّ ، فلِذٰلكَ خافُوا مِنَ الملائكَةِ ، ومِنَ الجنِّ ، وآمَنوا

بـالاسْتعاذَةِ بـأَسْيادِ الجنِّ وزادَ في خـرافتِهِم أَنَّهُمْ اعْتَقَـدوا بالتَّشاؤُمِ ، والتَّطيُّرِ ، والفَأْلِ (التَّفـاؤلِ) ، وكانـوا يذْهَبـون إلى المنَجِّمين والعرّافين يسْتَشيرونهم ، ويسْأَلونهم ، ويأخُذونَ بآرائِهِم ، وأعجبُ مِنْ ذٰلك أَنَّهُم حَرَّمـوا مِنْ حيوانـاتِهِمْ وزرْعِهِم ما شـاؤوا ، وحَلَّلوا ما أرادوا ، فكـانوا يقولونَ مثلاً: هٰذا الجملُ لاَ يُرْكَـبُ ، وهٰذه الشّاةُ لا تُذْبحُ ، وهٰذا الزَّرْعُ للأَصْنامِ ، وهٰذا حَـلالٌ لذكورِنا حرامٌ على إناثِنا ، وهٰـذا لا يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عليهِ، إلى غير ذٰلك مِـنَ الخرافاتِ المضحكةِ العجيبةِ التـي لا تَرُوقُ لصاحبِ عقلٍ ناضجٍ، ولا لأَحـدٍ منّا أيّها المؤمنونَ الأَحبَّةُ لأَنَّنا نَسْتَخْدِمُ عقولَنا ونفكِّرُ بِها .

وَالظُّلْمُ في حياتِهِمْ

وإذا ما انْتَقَلْنـا مِنْ معتقداتِهِم إلى نظامِ حيـاتِهِم رأَيْنا أَنَّهُ نظـامٌ يقومُ على ظُلْمِ القويِّ للضَّعيفِ وتَحكُّمِ القـادِرِ في العاجِزِ ، وإثارَةِ الأَحقادِ ، وحُـبٍّ في الانتقـامِ ، وأخْـذِ ثَـأْرِ المقتـولِ ، وإلْفَـةٍ للحـروبِ والقتـالِ ولسنواتٍ عديدةٍ، وهٰذا ما جعلَهُمْ قبائلَ مفَـرقَةً يجمعُها جامعٌ واحدٌ ، وهو الظُّلْمُ في الحيـاةِ ، وعَـدَمُ إدراكِ الأمانِ ، والسَّـلامِ ، والعـدْلِ ، والإخـاءِ..

وقـد نالـتِ المرأةُ نصيباً وافيـاً مِـنْ ظُلْمِ العـربِ وقسْوةِ حيـاتِهِم .. فكانَـتْ في نظرِهـم نَوْعـاً مِنَ المتاعِ لا نصيبَ لها مِـنَ الرَّأْيِ والحريَّـةِ والميراثِ ، بَلْ غدَتْ لعبَةً بينَ أبيها و إخوتِها وزوْجِهـا ، وهٰذا فيه ما فيه

مِنَ الإذلالِ ، زِدْ على ذٰلك ما كانَتْ تـلاقيهِ البناتُ الصَّغيراتُ مِنْ دَفْنٍ في التّرابِ بَعْدَ ولادتِهِنَّ دُونَ ذَنْبٍ وهنَّ أحياءٌ خشيةَ الفقرِ أو العار!!

والدُّنْيا هَمُّهُمْ

ونظـامٌ ظالمٌ كهٰـذا النِّظامِ في الحيـاةِ سَـوْفَ يؤدِّي بهم إلى الالتفـاتِ للدُّنيا وملذّاتِها ، وجَعْلِها هَمَّهمُ الوحيدَ الذي يُرضي رغباتِهِمْ وشهواتِهِم، فها هُمْ أُولاءِ قَدِ اعْتادوا شُرْبَ الخمرِ التي تذهَبُ بالعقْلِ ، وعرفوا لعبَ الميسرِ الذّي يـذهَبُ بالمالِ ، وتعـاطَوْا فيما بينَهمُ الـرِّبا ، وكلُّها تـذهبُ بالمحبَّـةِ وتأتي بالبـؤْسِ والدَّمارِ ، كلُّ مـا يَبْغونه لـذَّةُ الطّعامِ والشَّرابِ وانتهاكُ المحرَّماتِ التي يَأْباها العقْلُ السَّليمُ .. لا يفكِّرونَ في يومِ بعثٍ ولا دارِ آخـرةٍ ، بَـلْ يزعمون أَنَّ ذٰلـكَ مستـحيلٌ علـى اللهِ ، وَنَسـوا أَنَّهُ قَدْ خَلَقَهم ، ويقدرُ على إعادةِ خَلْقِهم..

أرأيتُم أيها الأحبَّةُ كَيْـفَ يفكِّرون؟ وكَيْف ضَلُّوا ضـلالاً بعيداً؟ حَقّاً إنَّهم جاهِلون، ظَلَموا عُقُولَهم وقُلُوبَهم وأَنْفُسَهم .

العُنْصُرُ العَرَبيُّ

على أَنَّني لا أُنكـرُ أَنَّ للعربِ فضـائِلَ وطباعـاً كريمـةً ، فَقَدْ عُـرِفوا بذكـائِهِم وشجاعتِهـم وجُودِهـم ، إلا أَنَّ هٰذهِ الفضائِلَ لَمْ تمنَعْهُـم مِنْ حياةِ الجاهليَّـةِ العمياءِ ، فَلَـمْ يستطيعوا تَـوْجيهَ مـواهِبِهم نَحْـوَ الهُدى والصَّـلاحِ وبناءِ الحيـاةِ الكـريمةِ على هٰـذهِ الشَّمائِلِ الحسَنَـةِ ، بل إنَّنـا

نلحَظُ العكسَ تماماً ، فقدْ سيطرَتْ عليها الهمجيّةُ والرَّذيلةُ ، وغدَتِ الحسناتُ كزهراتٍ قليلةٍ في حقْلِ شَوْكٍ واسعٍ ، أو كقليلٍ منَ الماسِ في منجمٍ فحمٍ كبيرٍ ، وأنّى للزّهرةِ أنْ تصنَعَ ربيعاً في الحياةِ ، وكيف لرائحة زهرةٍ أو زهرتَين سَتْرُ رائحةِ الخمورِ والضّلالِ والكُفْرِ والفسوقِ!! ولن يَصْلُحَ شُعاعُ ماسةٍ واحدةٍ كَيْ ينيرَ ظلامَ الفحمِ الأَسْودِ ..

لقد طغَتِ السَّيئاتُ على الحسناتِ ، ومحتْها محْواً أشْبَهَ بالكامِلِ .

أَيْنَ دينُ الْحَقّ ؟؟

وكُلُّ ما سبَقَ أنْ عرفناهُ مِنْ بشائرِ النُّبوّةِ ، وحالةِ الأُممِ عامّةً ، والعربِ خاصّةً ، وكلُّ ما عرفْتُموه من الضّلالاتِ المُسَيْطرة ، والخرافاتِ المتحكِّمةِ ، والفوضى السّائدةِ .. كلُّ هٰذا جعَلَ بعضَ الحكماءِ العاقِلين يتطلّعون إلى حياةٍ أُخرى ونظامٍ آخرَ ، ويتساءلونَ : أما بَعْدَ هٰذه الضّلالةِ مِنْ هُدَى ؟ أما آنَ الأوانُ لكي ينقلبَ المجتمعُ إلى مجتمعٍ صالحٍ ؟ ما الفرقُ بيننا وبينَ الحيواناتِ إذا بقينا على هٰذا الضّلالِ ؟ ولكنْ أينَ هٰذا الحقُّ ؟ أهُوَ في النّصرانيّةِ المنحرفةِ ؟ أمِ اليهوديّةِ المشوّهةِ؟ لا .. ولا في غيرِها مِنْ دياناتِ العالمِ آنذاكَ . وبَدَتِ الحاجَةُ أشدَّ ما تكونُ إلى النبيِّ المبشَّرِ بِهِ ، إلى رسولٍ من عنْدِ اللهِ ينقذُ النّاسَ مِنْ هٰذا الضّلالِ ، ويخرجُهُمْ منَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ، ويهديهم إلى الصِّراطِ المسْتقيمِ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
١٢

ليلة القدْر

الرَّجُلُ السّعِيدُ

عرفْتُم يا أحبّائي في قِصَّةٍ سابقَةٍ كيْفَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ على الشّابِّ الكَريمِ محمَّدٍ ﷺ بزوجَةٍ كريمةٍ وأولادٍ مُكْرَمينَ ، وكَفاهُ بزوجتِهِ هٰذهِ مَؤُونَةَ السَّعْيِ الشّاقِّ في سَبيلِ لُقْمةِ العَيْشِ ، وبارَكَ اللهُ لَهُ وَلَهَا في المالِ والصِّحَّةِ ، وَأَعْطاهما الوَفْرَةَ والخَيْرَ والبركَةَ في كُلِّ شَيْءٍ ، وأَتَمَّ عليْهِما وِفاقَهما ، وإخْلاصَهما ، وحُبَّهما ، فعاشا زوجيْنِ سعيدَيْنِ هانئيْنِ ، وامتَلأَ البيْتُ بهجَةً وأُنساً ومَرَحاً ، وباتَ محمّدٌ ﷺ مَثَلَ الرَّجلِ السَّعيدِ في البيتِ السَّعيدِ ، حَيْثُ الحبُّ والوفاقُ ، والمالُ والبنونَ ، والخُلُقُ والجمالُ ، والحسَبُ والثِّقةُ ، وهٰذا أَقْصى ما يَنْشُدُه كُلُّ شابٍّ ورجلٍ منَ السَّعادةِ ، وأَتَمُّ ما تريدُهُ المرأَةُ مِنَ الهناءِ ، وهَلْ يَبْغي الإنسانُ مِن النِّعَمِ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ؟

ماذا يحزنُهُ ؟!

وبرغْمِ كلِّ ما يحيطُ بالزَّوجِ السَّعيدِ منَ النِّعَمِ ، فَقَدْ كانَ يَبْدو قَلِقَ المحيَّا ، مُضطربَ البالِ ، لا تهمُّه سعادَةُ الدُّنْيا ، وكُلُّ مَنْ ينظُرُ إليه يَراهُ دائمَ التَّفْكيرِ ، كثيرَ الصَّمْتِ ، كأنَّه يستصْعبُ حملاً ثقيلاً مِنَ الهَمِّ ، ولوْ أَرَدْنا أَنْ نفسِّرَ هٰذا المظهرَ للشّابِّ الزَّوجِ .. لا نجدُ سوى طفلَيْنِ ماتا

مِنْ أَوْلادِهِ هما : (القاسمُ ، والطّاهرُ عبدُ اللهِ) ، ولٰكنَّ موْتَ الأَولادِ ليْسَ بالشَّيْءِ الّذي يَطْبَعُ الحزْنَ أيّاماً طِوالاً وأشْهراً عديدةً ، والأَولادُ كثيراً ما يموتون ، ويحزنُ الأَبُ والأمُّ قليلاً مِنَ الوقْتِ ثم تُنْسيهِما الأَيّامُ مِنْ أمرِهم كلَّ شيْءٍ .. إذاً ما سببُ قلَقِ وحزْنِ الرَّجلِ السَّعيدِ ؟ ولماذا يطولُ تفكيرُهُ ويدومُ صمتُهُ ؟ لا شكَّ أَنَّ هناك أَمْراً عظيماً يشغلُهُ ويقلقُهُ !! فلْنبحثْ خارجَ بيْتِهِ فقدْ نجدُ السَّبَبَ .

حالُ قوْمِه

وسرعانَ ما نرى الوَضْعَ السَّيِّئَ الذي يعيشُهُ قومُهُ مِنْ فسادٍ يزعجُ محمّداً ، وكلَّ ضميرٍ حيٍّ ، ويقلقُ صاحبَ العقْلِ المفكرِ ، الّذي يتطلّعُ إلى معالي الأُمورِ ، وأنّى لَهُ أَنْ يرتاحَ في شبابِه أو بعْدَ زواجِهِ وقد رأى قومَهُ على حالٍ يُرْثَى لها مِنْ فسادِ العقيدةِ ، وسيطرةِ الخرافاتِ والأَوْهامِ عليهم ، لا هَمَّ لَهُمْ إلاّ الشّهواتُ كالبهائمِ ، ولا يحبُّونَ إلا التَّناحُرَ فيما بينَهم كالوُحوشِ ، حتى غَدَوْا أَدْنى أُممِ الأَرضِ ، وأَحطَّهمْ كرامةً ومكانةً ، وأشدَّهم فوضى ، يطمعُ بهمُ العدوُّ مِنْ حولِهمْ ويسلبُهُمْ أراضيهمُ على الأطْرافِ الخصيبةِ ، وهُمْ لاهُونَ غافِلون ، ومحمّدُ بنُ عبدِ اللهِ ينظُرُ فيُحزنُ قَلبَهُ ما همْ عليه ، ويهولُهُ ضلالُهُم وجهلُهم ، ويقلقُه أمْرُهُمْ ، فيفكِّرُ ، ويطولُ تفكيرُهُ ، ويصمُتُ ، ويدومُ صَمْتُهُ ، فلا غرابةَ إذاً .

أَيْنَ الطَّرِيقُ؟

ولهذا يـا أحبّائي أخـذَ محمَّـدٌ الشّابُّ يفكِّـرُ ، وينظُـر ، ويتمنّى لَـوِ اسْتَطاعَ إصْلاحَ حالِهِمْ ، وإزالةَ الغشـاوةِ عَنْ عُيُونِهم ، ويحبُّ لو تمكَّنَ أنْ يضَعَ عنْهم الأَغْلالَ المحيطَةَ بهم . إنَّهمْ قد جمدَتْ عقولُهُمْ ، وعميَتْ بصائِرُهُـم ، وصُمَّتْ آذانُهم ، فَهُمْ صمٌّ بكْـمٌ عُمْيٌ ، لا يعرفـونَ للحقِّ سَبيلاً ، ولا يهتدون إليه ، وأمامَ هٰذا لم يدَّخرْ محمّدٌ وقتاً إلا وفكَّرَ واهْتَمَّ ، فـأصْبـحَ كثيرَ الهمِّ دائمَ التَّأَمُّـلِ ، علَّـهُ يعـرفُ أيـنَ الطَّريـق ، وبمَـنْ سيسْتَعينُ ليخرِجَهمْ منَ الضَّلالِ ؟

لقَدْ نظَرَ في غيرِهِـمْ مِنَ الأَقوامِ فوجَـدَ النَّصارى واليهودَ قَدْ تـاهوا ، وانْحرفـوا ، وفَسَدوا ، فَلَيْسُـوا بأرْشَدَ مِـنَ الآخرِيـنَ ولا أحْسنَ تفكيراً ، فالهدايـةُ ضروريَّةٌ لهؤلاءِ ، أيـنَ الحلُّ ؟ وأينَ طريقُ النُّورِ ؟ وهَلْ مِـنْ خلاصٍ وفِكاكٍ .

غارُ حِراءٍ

إنَّهُ أمامَ هٰذا الهمِّ الثَّقيـلِ الذي شَغَل بالَهُ وأَقْلَقَ راحَتَـهُ ، وأمامَ هٰذه الحيْرةِ التي ضاقَ بها صَدْرُهُ ، وانْقبضَتْ لها نفسُهُ لم يكُنْ لَهُ إلا الابتعادُ والنَّظرُ إلى القوْمِ مِـنْ علٍ (مِنْ أَعلى) .. إنَّ مكَّةَ لتحيـطُ بها الجبالُ مِنْ حـولِها ، والجبالُ عـاليَةٌ يستطيـعُ مِنْ عُلُـوِّهَا أنْ يتعرَّفَ على الوَبـاءِ ، وينعزلَ عَنْهُ ، ويفكِّرَ في خَلاصِ القَوْمِ بصفاءٍ دُونَ أنْ ينْغمسَ معهُم ،

وهناكَ في غارِ حراءٍ وسطَ الجبالِ اتَّخذَ مكاناً لخَلْوتِه ، وهذا الغارُ كهفٌ صغيرٌ في جبلِ حراءٍ ، لا عُمْـرانَ أمامَـهُ ، ولا سكّانَ على سَطْحِـه ولا نبـاتَ ولا زرْعَ ، ولا يصلُ إليـه الإنْسانُ إلا بَعْـدَ سَيْرٍ شاقٍّ .. وإذا مـا دَخَلَهُ فـلا أنيسَ ولا أُنْسَ، بَلْ وَحْشَةٌ ورَهْبَـةٌ .. وهُناكَ في ذٰلـك الغارِ ينامُ، ويعتكِفُ طويلاً متزوداً بالطَّعامِ والشَّرابِ .

محبَّةُ الخَلاءِ

وفي مكانِهِ الجديدِ في الغَارِ ، خَلَصَ ﷺ مِنَ النّاسِ ليفكِّرَ في أمْرِهِم مَعَ ربِّ السَّماءِ ، فكأنَّه قَدْ وَجَّهَ روحَهُ ونَفَسَهُ إلى أعْلى ، وأبْقى قدميْهِ على الأَرضِ ليربطَ النّاسَ بحلٍّ يناسِبُهم .

تصوَّروهُ يا أَحبّتي وهُوَ جالِسٌ في الغارِ ، يفتَحُ قَلْبَه وجوارِحَهُ إلى اللهِ خالِقِ النّـاسِ والكَوْنِ ، يَدْعوهُ أنْ يَشْرَحَ صَـدْرَه بنورِ الحَقِّ ، وأنْ يخرجَهُ مِـنَ الهمِّ والضِّيـقِ ، ويخلِّصَـه مِـنَ الحَيْرَةِ والتَّفكيرِ المُضني ، ويَهْدِيَـه الطَّريقَ المُسْتقيمَ والسَّبيلَ السَّويَّ ، ولا نَدْري .. أيرغَبُ الإنسانُ في غارٍ كغارِ حراءٍ يخْلُو بِـهِ من النّاسِ ويناجي ربَّه؟ وهَـلْ يَسْتطيعُ المرءُ أَن يفعَلَ ذلك ليالِيَ وأيّاماً ؟ إنَّ محبَّـةَ محمّدٍ للخلاءِ والبعْدِ لأَعْلى مكَّةَ ، قد مَلَكا علَيْه قلْبَهُ ، وكـأنَّهُ قد مدَّ يدَهُ للغارِ مُؤاخياً ومُصاحِباً ، في وَحْشةِ الظَّلامِ وقَفْرِ المكانِ .

تهيئةٌ ربّانيّةٌ

وتكرَّرَ اعتكافُهُ في الغارِ مرّاتٍ ومرّاتٍ ، وأُولِعَتْ نفسُهُ ولَعاً شديداً بخلوته وحدَه في مكانٍ ناءٍ ، بعيداً عنِ النّاسِ ، يقلِّبُ بصرَهُ فيما حولَهُ مِنْ مظاهرِ الكَوْنِ ، ولعلَّ اللهَ قَدْ أرادَ لَهُ بذلكَ اسْتِعداداً لأَمرٍ عظيمٍ ، وتهيئةً لشَرفٍ كبيرٍ قادمٍ عليْهِ . إنَّ إحساسَهُ قَدْ بَدَأَ يخْطُو خطواتٍ وضيئةً نحوَ السَّماءِ ، لقَدْ تفتَّحَتْ روحُهُ ، وامتلأَ قلبُهُ بشعورٍ غريبٍ ، وبدأَتِ الرُّؤيا الصَّادقةُ تُشرِقُ عليه ، فلا يَرى رُؤْيا إلا تحقَّقَتْ ، وجاءَتْ كفلَقِ ونورِ الصُّبحِ . وجعَلَ يرى ويَسمَعُ ما لمْ يرَهُ أوْ يسمعُ بِهِ أَحدٌ مِنْ قَومِهِ ، حتّى خَشيَ على نَفْسِهِ أنْ يَكُونَ قدْ أصابَهُ سوءٌ .. ويحدِّثُ أحياناً زوجتَهُ خديجَةَ بمخاوفِهِ ، فلا تَسْمَعُ منها إلاَّ الاطمئنانَ: (لَن يُصيبَكَ سوءٌ ، وأَنْتَ الصّادقُ الأمينُ .. لَنْ يخزيَكَ اللهُ ، ولنْ يمسَّكَ من الشّيطانِ سُوءٌ) .

ليْلةُ القدْرِ

وتَتوالى الخلواتُ ، وتقتربُ هدايةُ اللهِ لعبْدِهِ حاملةً الأمَلَ ، وتنحصرُ اللّيالي ، وتَضِيقُ لتتّسعَ فيما بيْنَها لِلَيْلَةٍ عظيمةِ القدْرِ هي (ليلةُ القَدْرِ) .. يُشرِقُ فيها النُّورُ الإلٰهيُّ على خَلْوةِ محمّدٍ ، وتنْفتحُ هذه اللّيلةُ عَنْ خيْراتٍ تعدِلُ ألْفَ شهرٍ وأكثرَ ، وتتنزَّلُ البركاتُ من السَّماءِ معلنَةً رحمةَ اللهِ لعبادِهِ ، وتفتَحُ بنُزُولِها عهْداً جديداً ومرحَلَةً حاسمةً في تاريخِ

البشريَّةِ كُلِّهِ ، إنَّها ليلةُ الصّوابِ والاتِّجاهِ نَحْو اللهِ ، حدثَ فيها ما شَرَحَ اللهُ بِهِ صَدرَ محمّدٍ ، ورفَعَ لَهُ ذكْرَهُ ، ووضَعَ عنْهُ وِزْرَ القلقِ والحَيْرَةِ ، وأنْعمَ عليهِ باليُسْرِ بعدَ العُسْرِ . ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾ .

ليْلةُ القُرآنِ

وإنَّها يا أحبّتي ليلةُ القرآنِ .. ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ ، نزلَتْ فيها أَوّلُ آياتٍ منه مِنْ سورةِ العلقِ .. حيثُ نزلَ جبريلُ الأمينُ إلى غارِ حراءٍ ، كانَ ذلكَ في شهرِ رمضانَ ، والرّسولُ محمّدٌ في الأربعينَ مِنْ عُمُرِهِ ، والوقتُ كأنَّهُ لَيْلٌ ، والسُّكونُ شاملٌ ، وصوتُ جبريلَ ينادي محمّداً ويقولُ لَهُ : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ورسولُ اللهِ لا يعرفُ ما يقرأُ ؟ وأَعادَ جبريلُ الأَمْرَ ثلاثَ مرّاتٍ ومحمّدٌ يجيبُ : (ما أقرأُ ؟) ، ثم قالَ جبريلُ أخيراً : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ فقرأَها رَسُولُ اللهِ ، وبلغَ الخوفُ منْهُ مبلغَهُ وسطَ الهدوءِ والسُّكونِ والصَّمتِ .. آياتٌ تتنزَّلُ ، ومحمّدٌ مرتجفُ القلبِ ، خائفُ الفؤادِ ، يردِّدُ ما يقولهُ جبريلُ ..

وَأَنا جِبريلُ

ثُمَّ يبْتعدُ صاحبُ الصَّوتِ دُونَ أَنْ يدريَ محمّدٌ ، ودونَ أَنْ يسمعَ أَوْ يرى ، ويخرجُ محمّدٌ مِنَ الغارِ فَزِعاً ، حتّى صارَ في وسطِ الجبَلِ ، سمعَ عنْدَها صَوْتاً كالسّابِقِ ولكن بغيرِ تلْكَ الكلماتِ ، لقدْ سمعَ الآن جملَةً رائعةً فيها كلُّ الاطمئنانِ وكلُّ الجوابِ : (يا مُحَمَّدُ .. أنتَ رَسُولُ اللهِ ، وَأَنا جِبْريلُ) . إنَّهُ جوابٌ يفسِّرُ الكثيرَ ، ويَحُدُّ مِنَ القلَقِ ، ويهدِّئُ مِنَ الرَّجفَةِ ، ويرفعُ الرَّسولُ الجديدُ رَأْسَهُ نَحْوَ مصدَرِ الصَّوتِ ، فيرى جبريلَ في صورةِ رَجلٍ في فمِهِ كلامٌ .. يعيدُ الجملةَ نفْسَها : (يا محمَّدُ .. أَنْتَ رسولُ الله ، وأنا جبريل) ، ويقفُ محمّدٌ ينظرُ عاجزاً عنِ الكلامِ والحركَةِ ، فالصَّوْتُ والمنظرُ لا يتغيَّرانِ في الجهاتِ جميعها ، ويكادُ يسقطُ مغشيّاً عليهِ مِنْ هَوْلِ ما يراهُ وما تسْمعُهُ .

نَعَمْ يا خديجَةُ

ويطولُ وقوفُهُ وسطَ الجبلِ ، وترسِلُ خديجةُ مَنْ يَتَفَقَّدُهُ ، فقدْ طالَ غيابُهُ هٰذِهِ المرَّةَ ، وينصرِفُ جبريلُ عَنِ الرَّسولِ خاتمِ الأَنْبياءِ ، ويتمكَّنُ محمّدٌ قليلاً قليلاً مِنَ الحركَةِ والدوَرانِ ، ويتابعُ طريقَهُ مسرِعاً نَحْوَ مكَّةَ ، ويصلُ إلى بَيْتِهِ ، ويطرقُ بابَ خديجَةَ وفؤادُهُ يرجفُ مِنَ الفَزَعِ والرُّعبِ ، ويدخُلُ لِتَرى خديجَةُ وَجْهَهُ المتلوِّنَ فتفزَعُ لفزعِهِ ، وتأخُذُ بمسْحِ وجهِهِ قائلةً : ما جَرى لكَ يا أَبا القاسِمِ ؟ أَرأيْتَ أَوْ

سمعْتَ ما يخيفُكَ ؟ والجوابُ على لسانِ الرَّسولِ يخرجُ سريعاً : (نَعَمْ ياخديجَةُ .. الصَّوْتُ الذي كنْتُ أَسْمَعُ في اليقظةِ وأهالُ مِنْهُ ! فإنَّهُ جبريل ..) وتبدَّتْ نقطةُ استبْشارٍ في قلبِ خديجَةَ بعد أنْ أَتَمَّ محمدٌ كلامَهُ ، وعلمَتْ أَنَّهُ نبيُّ هٰذه الأمةِ ، ولكنَّ زَوْجَها بحاجةٍ الآنَ إلى مَنْ يهدِّئُ روْعَهُ ، ويخفِّفُ فزعَهُ ...

لا تَخَفْ يا بْنَ عَمٍّ

لذٰلك راحَتْ خديجَةُ تطمْئنُهُ ، وتضعُ يدَها على جبينِهِ ملاطِفَةً مهدِّئَةً ، وهيَ تقولُ : (أَبْشِرْ يا بْنَ عَم .. أَبْشِرْ يا بْنَ عَمّ) ، وتَخفُّ الوطْأَةُ على رسولِ اللهِ ﷺ ، وينزلُ كلامُ خديجَةَ على مسامعِهِ كالبَلْسَمِ الشّافي ، وتزيدُ خديجةُ مِنْ أمْرِ بشراها ، وتعلنُ لزوجها قائلةً : (أَبْشِرْ يا أبا القاسِمِ ، واثْبُتْ ، فوالَّذي نفْسُ خديجَةَ بيدِهِ ، إنِّي لأرْجو أنْ تكونَ نَبيَّ هٰذه الأُمَّةِ !) .

وتنظرُ في عيْنَيْ زوجِها ، وترى بريقَ الاطمئنانِ وابتسامَةَ الأَمانِ ، قد رَجعا إليه ، ولمَسَتْ منْهُ هدوءَ الرَّجفَةِ وانقطاعَ الفزَعِ ، وربَتَتْ بيدِها على كتفِهِ وهي تقولُ : (أبشِر فإنّي لأَرْجُو أَنْ تكونَ نبيَّ هٰذه الأُمَّةِ) .

إلى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ

.. ولكنْ لا بُدَّ مِنَ التحقّقِ ، ولخديجَةَ ابنُ عمٍّ يعرفُ شيئاً مِنْ أخبارِ الرُّسُلِ والأَنبياءِ ، إنَّهُ (ورقةُ بْنُ نوفَلٍ) ، وها هيَ ذي ترْتدي ثيابَها ، وتقومُ منطلقةً إليه .. ودخلَتْ على ورقةَ ابْنِ عمِّها ، ثم قالَتْ لَهُ : لقدْ

حدَثَ مع زوجي كَذا وكَذا ، ورأى وسَمِعَ ما لَمْ يَرَهُ ويَسْمَعْهُ مِنْ قَبلُ ، فما تَرى في ذلك ؟ فقالَ ورقةُ : إنَّهُ جبريـلُ يا خديجَةُ ... قـولي لمحمّدٍ : (إنَّكَ نبيُّ هٰذه الأمّةِ ، والّذي رأيتَـه هُو جبريلُ حَقّاً ، واثْبُتْ على ما سَمِعْتَهُ ورأَيْتَهُ) .

ورجعَتْ خديجَةُ إلىٰ حيثُ ينتظرُها ﷺ ، فأخبرتْهُ بقولِ ورقَةَ بنِ نوفَلٍ الّذي تطابَقَ مَعَ كـلامِها .. وغَدا الكونُ يـردِّدُ حولَ محمّدٍ ، يـزفُّ إليه البُشْرى : أبْشِرْ يا محمدُ.. إنَّكَ لَنبيُّ هٰذِهِ الأمّةِ .

اثبُتْ يا محمّدُ

ويلْتقي (ورقَةُ بْنُ نَـوفَلٍ) برسولِ اللهِ أمامَ الكعبةِ ، ويسألُهُ قائلاً : أخبِرْني يا بْـنَ أخي بما سمعْـتَ ورأيْتَ ، فيخبرُهُ الرّسولُ ﷺ ، فيقـولُ ورقَةُ : (والّذي نَفْسي بيدِهِ إنَّـكَ لنبيُّ هٰذهِ الأمّةِ ، ولقدْ جاءَكَ النّاموسُ الأكْبرُ الـذي جاءَ مُـوسى ، ولئِـنْ أدْرَكَنـي يومُـك .. لأنْصُرَنَّ اللهَ نصراً يعلمُهُ ، لَيْتَني أكونُ حَيّـاً إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ) ! ويستغربُ الرّسولُ هذا الكلامَ ! كَيْفَ يخرجُهُ قَوْمُهُ ؟ فيـوضِّحُ له ورقَةُ ذلكَ ، ويقولُ : (نَعَمْ .. لم يأْتِ أحدٌ بمثلِ ما أتَيْـتَ بِهِ إلا عُودِيَ) . وتَبْقى الكلماتُ عـالقةً في ذهْنِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ينتظـرُ الغَدَ الذي يتحقَّقُ فيه قَـوْلُ ورقَةَ ، وهُوَ لا يكادُ يصدِّقُ ، ويتصوَّرُ ، كيْفَ سيخرجُهُ قـومُهُ مِنْ مَكّةَ المكرَّمَةِ ؟ ومِنْ جِوارِ البيتِ الحرامِ ؟

تُرى هل سيحدثُ ذلك ؟ تابِعوا القراءةَ يا أحبّائي لتعرفَ الجوابَ..

لماذا انقطع الوحي ؟!

تأكيداتٌ ثلاثةٌ

تركتكُمْ في نهايةِ القصَّةِ السّابقةِ عنْدَ الكعبةِ ، مَعَ ورقةَ بْنِ نوفلٍ الذي التقى هُناكَ بمحمّدٍ ﷺ . وعَلِمْتُمْ أَنَّ الرّسولَ الحبيبَ قَدْ تشرَّفَ بالنّبوَّةِ الكريمةِ أكْبَرِ نعمةٍ لَهُ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وقَدْ تأكَّدَ هٰذا يا أحبَّتي ثلاثَ مرّاتٍ كما رأيْنا : في المرّةِ الأولى مَعَ جبريلَ وسطَ غارِ حراءٍ حيثُ قالَ لمحمّدٍ : (أنْتَ رسولُ اللهِ وأنا جبريلُ) .. وفي المرّةِ الثّانيةِ مَعَ خديجةَ بكلامِها اللّطيفِ : (أبْشِرْ يا بْنَ عَمٍّ .. فوالّذي نفْسُ خديجةَ بيدِهِ ، إنّي لأرْجو أنْ تكونَ نبيَّ هٰذه الأمّةِ) .. وفي المرّةِ الثّالثةِ مَعَ ورقةَ بْنِ نوفلٍ الّذي أعادَ تأكيدَ خديجةَ وزادَ عليْهِ: (.. ولَقَدْ جاءَكَ النّاموسُ الأكْبَرُ ، الذي جاءَ موسى .. لَيْتَني أكونُ حيّاً إذْ يُخرِجُكَ قومُكَ) .. وهٰذهِ العبارةُ الأخيرةُ جعلَتْ للتّأكيدِ معنىً آخرَ في نفْسِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ .

توقُّعاتُ الرّسولِ

وما أنْ سمعَ الرّسولُ ﷺ هٰذا الكلامَ مِنْ ورقةَ بنِ نوفلٍ حتى هزَّتْه أمورُ الغدِ المنتظَرِ ، وهُو لا يكادُ يتصوّرُ كيْفَ سيخرجُهُ قومُهُ منْ مكّةَ ، وهو ابْنُها ومِنْ قوْمِها؟ .

أمامَ هٰذهِ المعاني المتواردةِ على الذّهنِ ، كانَ الرّسولُ ﷺ يتوقعُ أُنساً مِنْ جبريلَ ومُؤانسةً مِنَ اللهِ ، كالّتي كان يَنْعمُ بها موسى مِنْ قَبْلُ ،

وأوّلُ ما جعلَ هٰذا الأُنْسَ ضروريّاً أنَّ ورقةَ بْنَ نوفلٍ قَدْ ماتَ بعد مدةٍ، وغابَ شَخْصٌ مَنْ أكّدَ لمحمّدٍ نبوَّتَهُ ، لذلكَ أصبحَتِ الحاجَةُ إلى المؤكِّدِ الأوّلِ ، والناموسِ الأكبرِ (جبريلَ) ضروريّةً ، لتَسدَّ فراغَ موْتِ ورقَةَ ، وازدادَتْ توقُّعاتُ محمّدٍ بأنَّ جبريلَ سيأْتي وسينْزِلُ ثانيةً ، وأصبحَ يرجُو ذٰلك ، وكأنّه نَسيَ هَوْلَ المفاجأةِ في الغارِ للمرّةِ الأُولى .

هَوْلُ الذِّكْرى

والحقُّ يا أحِبّائي .. أنّه لَمْ يَنْسَ ما تلقّاهُ هناكَ في الغارِ ، مِنْ صدْمَةٍ هزّتْ مشاعرَهُ بِعُنفٍ وشِدّةٍ ، وإنَّ الرّؤيةَ الأُولى لجبريلَ لتَبْقي في النَّفسِ ذكرى لا تُنْسى وصورةً لا تُمحى ، وإنَّ هَوْلَها ليَزرَعُ في الوجْهِ تربُّداً .. ويأْذَنُ للعرقِ في الانحدارِ الشّديدِ .. إنّهُ ليتذكَّرُ كلَّ هٰذا يا إخْوتي ، وكيف لا يتذكَّرُ وهوَ الّذي عادَ إلى خديجةَ مُرْتَعدَ الأوصالِ مَرعوبَ الأطْرافِ مُصْفَرَّ اللّوْنِ ، لا يدْري ماذا يفعلُ بعد أنْ تَسمَّرَ في مكانِهِ في الجبلِ أمامَ جبريلَ ، لا يتقدّمُ ولا يتأخّرُ ، ولسانُهُ مَقفولٌ عن القراءةِ والكلامِ ؟؟.

وعلى الرّغمِ من هٰذه الذّكرى وهَوْلها كانَ الرّسولُ ﷺ مُشْتاقاً إلى رؤيةٍ ثانيةٍ لجبريلَ تُوصِلُهُ بربِّ السّماءِ ، وبكلامِ خالقِ الأرضِ والسّماءِ، فَمَتى ستعودُ يا جبريلُ مع هوْلِ قدومِكَ ؟ .

فَتْرَةُ الوحْيِ

وإنَّ جبريلَ أَيُّها الأَعزّاءُ مشتاقٌ أَيضاً إلى رؤيةِ الرّسولِ الجديدِ محمّدٍ خاتمِ الأنبياءِ ، ولٰكنَّ الأوامِرَ لَمْ تَصِلْ إليه لِينزلَ إلى الأَرضِ .. ومرَّتْ فترةُ انقطاعٍ تامٍّ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ ، انقطَعَ فيها جبريلُ عَنْه ، فَلَمْ يواصلْهُ بوحيِ السَّماءِ كما كانَ يتوقَّعُ محمَّدٌ ﷺ ، واستمرَّ على ذٰلكَ مدَّةً.. وما أصعَبَهُ مِن انتظارٍ ! . وما أقسى البُعْدَ عَنْك ياجبريلُ!. وما أشَدَّهُ على قلبِ آخِرِ المرسَلين !. ولا تسألوا يا أحبّائي عَنِ الحزْنِ الشَّديدِ الذي خَيَّمَ على قلبِ رسولِنا الطّاهِرِ ، وجعلَهُ في حَيْرةٍ بيْنَ تَساؤلاتٍ عديدةٍ ، علَّهُ يَرى تفسيراً لهٰذا الانْقطاعِ .. مَنْ سيسألُ عَنْهُ مِنَ النّاسِ ؟ هَلْ تَعْلَمُ خديجةُ سببَ فترةِ الوحْيِ ؟ لا .. إنها كانَتْ تَسْأَلُ قريبَها ورقةَ بْنَ نوفلٍ .. واليومَ قَدْ ماتَ ورقةُ ، وما مِنْ أحدٍ يغني عَنْه مِنَ البشَرِ شيئاً . يا ربُّ .. فيمَ هٰذا الانقطاعُ ؟ وفيمَ هٰذا البُعْدُ يا جبريلُ ؟! .

خَشْيَةٌ كبيرةٌ

وذَهبتِ الظُّنونُ بمحمّدٍ ﷺ مذاهِبَ شتّى ، وأخذَ يتردَّدُ إلى مكانِ اللِّقاءِ مَعَ جبريلَ، هناكَ في الغارِ ، وجعَلَ يَعتكِفُ فيهِ كَسابِقِ عهْدِهِ ، ويخرجُ إلى رُؤوسِ الجبالِ ، يتطلَّعُ منها إلى السَّماءِ ، كأنَّهُ يسألُ ربَّهُ رؤيةً أخرى لجبريلَ ، يَنْظرُ هُنا وهناكَ ، وقلبُهُ يتفطَّرُ حُزْناً وهَمّاً ، وليْسَ مِنْ

مجيبٍ .. لا حِسَّ لجبريلَ ولا أُنْسَ ولا إشارةَ لَهُ ولا حركَةَ .. وخشيَ الرَّسولُ ﷺ على نفسِهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ رأى في المرّةِ الأُولى شَيْئاً غَيْرَ جبريلَ، أو سَمعَ أمْراً ليْسَ بوحْيٍ ، وخُيِّلَ إليهِ أنَّهُ لَمْ يَرَ ولَمْ يَسْمَعْ ، فانقبضَ صدْرُهُ، وضاقَتْ نفسُهُ ، وحارَ في أمرِهِ !! إلى مَنْ سيحْكي خشيتَه؟ ولمنْ يُفْشي سِرَّ ضيقِهِ وانقباضِهِ ؟ وإنَّهُ اليومَ لا يعرفُ أمْرَهُ سوى خديجةَ وورقةَ الذي ماتَ، ولا بُدَّ مِنْ إعلامِ خديجةَ بما يشْعُرُ بِهِ علَّهُ يجدُ عنْدَها أُنْساً.

البَلْسَمُ الشّافي

عادَ أخيراً مِنَ الغارِ ورؤوسِ الجبالِ ، ووصَلَ إلى خديجةَ التي عوَّدَتْهُ نظرةَ الحنانِ والتَّأْييدِ ، وأسْمعَتْهُ مِنْ قبْلُ عباراتِ التَّثبيتِ الرّائعةَ . وقرأتْ خديجةُ على وجْهِ الرّسولِ ﷺ ملامحَ جديدةً ، وسألَتْهُ مستفسرةً عمّا يُقْلقُهُ أَوْ يشْكو مِنْهُ ، فلم يكتُمْها رسولُ اللهِ شيئاً ، بَلْ بيَّنَ لها خشيتَهُ مِنْ وساوسِ الشَّيطانِ وعَدَمِ تحمّلِهِ لفراقِ جبريلَ وَحْيِ السَّماءِ ، وسرعانَ ما انطلَقَ لسانُ خديجةَ بكلامٍ خارجٍ مِنَ القلبِ وهيَ تقولُ لَهُ: (لا تَخَفْ يا بْنَ عَمِّ .. كلاّ واللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أَبَداً ، إنَّكَ لَتحمِلُ مِنْ صِفاتِ الخيْرِ ما لا تَجْعَلُ للشَّيْطانِ سبيلاً إلى قَلْبِكَ ونفْسِكَ ، فلا تَخْشَ مِنْ وساوِسِهِ ، واثبُتْ على ما أراكَ اللهُ أوّلَ الأمْرِ في الغارِ ، ولَنْ يَتْرُكَكَ اللهُ حَزيناً حائراً ..) إنَّهُ لكلامٌ كالبَلْسَمِ ، وقولٌ كالشِّفاءِ والدَّواءِ ،

هَلْ وَدَّعَني رَبِّي ؟

لكنَّ فَتْرَةَ الوحيِ قَدْ طالَتْ ، وغيابُهُ قَدِ اسْتَرسَلَ واسْتَمرَّ ، حتىّ ظَنَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ ربَّـهُ تركَـهُ إلى غيرِ لقاءٍ ، وازدادَتْ حَيْرَةُ محمَّـدٍ ﷺ وأَخَذَ يفكِّرُ مِنْ جديدٍ ، ويعودُ إلى الجبلِ مرّاتٍ ومرّاتٍ .. وفي كلِّ مرةٍ يسائِلُ نفسَهُ : ماذا فعلْتُ حتى تركَني ربِّي ؟ وهَلْ تركَني ربِّي حَقّاً ؟ أَهُوَ قد بَغضَني وقلاني ؟ هَلْ حَرَّمَ عَلَيَّ رُؤْيَةَ جبريلَ لأنّي لَمْ أتحمَّلْ ذلكَ الموقِفَ في الغارِ ؟ أَلَسْتُ أهلاً لأنْ أكُونَ رسولَ اللهِ حقّاً أتحمَّلُ تبعةَ الوحيِ وأثقالَهُ؟ .. إلى غيرِ هذا مِنَ الأسئلةِ ... ولا تسألوني يا أحبّائي عَنِ ازْديادِ حزنِهِ ﷺ . وكيْفَ لا يحزَنُ إنسانٌ أحبَّ مخلوقاً آخرَ ، واشْتاقَ لرؤيةِ هذا المخلوقِ المحبوبِ دونَ أنْ يرى بَصيصَ أَمَلٍ لرؤيتِهِ؟ ومحمّدٌ أَحَبَّ جبريلَ ، وجبريلُ قَدْ أحبَّهُ بلا شكٍّ ، ولكنْ ما سرُّ هذا الانقطاعِ الذي طالَ ، وطالَ كثيراً؟ .

يَأْسٌ مُهْلِكٌ

وستقولُونَ معي حتماً : إنَّنا قَدْ شَعَرْنا بطولِ هذِهِ الفترةِ ، وشدَّتِها على رسولِ اللهِ ﷺ ، فلقدْ مَرَّتْ عليه بطيئةً ثقيلةً مُرهقةً ، ساعَتُها كشهْرٍ ، وأسبوعُها كأنَّهُ سنةٌ كاملةٌ ، وإذا ما علمتُمْ أنَّ الفترةَ قَدِ اسْتَمرَّتْ سنواتٍ أَدْرَكْتُمْ عندَها ماكانَ للانتظارِ مِنْ صُعُوبةٍ ، ولهذا بَدَأَ اليأْسُ يتسرَّبُ إلى نَفْسِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأَوْشَكَ هذا اليأْسُ أنْ يجعلَ الضِّياءَ

مِنْ حَوْلِهِ ظَلاماً .. إنَّهُ لَيأْسٌ مُهلِكٌ كادَ أنْ يحطِّمَ قلبَهُ ، فهلا قَبَسٌ مِنْ نورِكَ يا ربُّ تضيءُ لَهُ بِهِ جوانبَ نفسِهِ وحَناياها ، وتَمْحو بها ظُلْمَةَ يأْسِهِ قبْلَ أنْ يُودِيَ اليأْسُ بِهِ ؟ .

أسمِعْهُ يا ربِّ آياتِكَ البيِّناتِ ، وأَعِدْ إليهِ الثِّقَةَ والطمأنينةَ ، وبشِّرْهُ بأنَّكَ لَنْ تَدعَهُ يائِساً ، وأنَّهُ لَرَسُولُكَ حقّاً .

إليْكَ بالأَمَلِ

وبُشْرى لكم أيُّها الدُّعاةُ الصِّغارُ ، فها هُو ذا جبريلُ حقّاً ينزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جديدٍ بعْدَ هذِهِ الفترةِ الطويلةِ .

نعَمْ لقَدْ أرسلَهُ اللهُ ليدْرِكَ محمَّداً ، وينقذَهُ مِنْ يأْسٍ أوْ شكٍّ كادَ أنْ يحطِّمَ قلْبَهُ ، وإنَّهُ لَتداركٌ مِنَ اللهِ ورحمةٌ ، أدّيا إلى إحياءٍ جديدٍ في نفسِ محمّدٍ ﷺ لما فقدَتْهُ النَّفْسُ مِنَ الأملِ ، وها هي ذي الثقةُ والطمأنينةُ قَدْ أخذَتْ مكانَها ، إنَّ جبريلَ قَدْ ظهرَ لهُ اليومَ مرةً أخرى ، وتراءى لَهُ في أفقِ السَّماءِ ، يُناديه بصوتِهِ العظيمِ وعبارتِهِ المؤكدةِ لنبُوَّتِهِ : (يا محمّدُ أنْتَ رسولُ اللهِ حقاً ، وأنا جبْريلُ) . إنَّها جملةٌ تشبِهُ ما سَمِعَهُ في المرةِ الأولى ، وفيها زيادةٌ ، وستقُولون : إنَّ كلمةَ (حقّاً) لهي حقّاً قَدْ فتحَتْ بابَ الأملِ ، وأثبتَتْ قولَ خديجةَ عندَما قالَتْ: (واللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبداً) .

زَمِّلوني زَمِّلوني

وستسألونني : (أَلَمْ يُرعَبْ رسولُ اللهِ ﷺ هذه المرَّةَ أيضاً) ؟

والجوابُ: بَلى .. لا تستغرِبُوا إذا قلتُ لكمْ : بلى .. لقَدْ حدَثَ الرُّعْبُ

كما تتصوَّرون ، ومَعَ ما في اللِّقاءِ الجديدِ مِنْ أمَلٍ ونورٍ يَمْحُوان القَلَقَ ، ويزيلانِ الوحشَةَ ، إلا أنَّ محمّداً قَدْ هَوى إلى الأرضِ مِنْ شدَّةِ الرُّعْبِ ، ولمّا اسْتَطاعَ النُّهوضَ ذهَبَ سريعاً إلى بيتِهِ حيْثُ تنتظرُهُ خديجَةُ أيضاً .. رأَتْهُ عندما وصَلَ مُرتَعِدَ الأوصالِ كأنَّهُ يشكو مِنْ نوبَةِ حُمّى ، ولسانُهُ يقولُ لها : (زَمِّلوني زَمِّلوني) ، أيْ : ألْقُوا فوقي غطاءً كثيفاً أتَّقي بِهِ ما ألَمَّ بي مِنْ رَجْفَةٍ وارتعادٍ .. ويسري الدِّفْءُ في كلامِ زوجتِهِ ، وينبعثُ الحنانُ مِنْ يديْها وقَلْبِها ، وما هو إلا القليلُ حَتى أعادتْ إليه خديجةُ هدوءَهُ واستقرارَهُ وسكينتَهُ بَعْدَ أنْ فَهِمَتْ ما حدَثَ لَهُ تماماً .

رأفَةُ اللهِ

والآن . سأحكي لكم سِرَّ غيابِ جبريلَ تلكَ الفترةَ الطويلةَ ..

إنَّ الحقَّ يا أحبَّتي أنَّ هَوْلَ نزولِ الوحْيِ على البَشَرِ أمْرٌ صَعْبٌ فوق طاقَةِ البشرِ العاديِّينَ ، وبالرغْمِ مِنْ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قَدْ هَيَّأهُ اللهُ لهٰذا الموقفِ ، وأمدَّهُ بقوَّةِ التَّحمُّلِ الكافيةِ إلا أنَّهُ كانَ يعاني مِنْ نُزُولِ جبريلَ عليه ، فوَجْهُهُ يتغيَّرُ لَوْنُهُ ، والعرقُ يتصبَّبُ منْهُ ، ولو في شدَّةِ البردِ ، وقد ذكرتُ لكُمْ أنَّ الهزَّةَ الأولى مِنْ هزَّاتِ الوحْيِ عنيفَةٌ وقاسيةٌ ، وكانَتْ رؤيةُ جبريلَ لأوَّلِ مرَّةٍ قد أثَّرَتْ في نَفْسِ الرَّسولِ ﷺ لهَوْلِ المنظرِ ، ولذلكَ يا إخوتي كانَ مِنْ رحمةِ اللهِ ورأفَتِهِ برسولِهِ الجديدِ أنْ يتركَهُ فترةً كافيةً يرتاحُ فيها ، ويستردُّ شتاتَ نَفْسِهِ ، ويهدِّئُ بها مِنِ اضطرابِ جسْمِهِ ووجوفِ قَلْبِهِ ، ويجعلُه يَستعدُّ مرَّةً أخرى وبشوقٍ

كبيرٍ لرؤيةِ الوحْيِ وأثقالِهِ وتبعاتِهِ العِظامِ .

سُورَةُ الضُّحى

وسَأَعْرِضُ عليكمُ الآنَ سُورةً تُسَمّى (سورةَ الضُّحى) ، وهي سورةٌ حلْوةٌ ستَحفظونَها إنْ شاءَ اللهُ ، لأنَّها تحوي آياتٍ عَنْ موضوعِ قصَّتِنا هٰذِهِ ، وقَدْ نزلَتْ بعد فترةِ الوحيِ وانقطاعِهِ ، فقولوا معي الآنَ :

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

إنَّها لَسورةٌ جميلةٌ حقّاً ، أزالَتْ هَمَّ رسولِ اللهِ ﷺ وهواجسَهُ وظنونَهُ ، وبدَّلَتْ قلَقَهُ سكينةً واستقراراً .. أعيدوا قراءةَ السُّورةِ مرَّةً ثانيةً ثم تعالَوْا معاً لنفْهَمَ شيئاً مِنْ معانيها الرّائعَةِ .

تأكيدٌ رابعٌ

إنَّ اللهَ يُقسِمُ فيها بأنَّهُ ما هَجَرَ محمّداً وما تركَهُ ، ولا قطَعَ عنْهُ الوحْيَ كُرْهاً ولا بُغْضاً ، وأنَّ اللهَ لَنْ يكرهَهُ ، ولن يبغضَهُ أبَداً ، وقَدْ رعاهُ بالعنايةِ مُنْذُ صِغَرِهِ ، ولَمْ يتخلَّ عَنْهُ لحظةً مِنْ لحظاتِ حياتِهِ .. فقَدْ آواهُ وهو

يتيمٌ لا أَبَ لَهُ وَلاَ أُمَّ ، وَأَغْنَاهُ وهو فقيرٌ لا ثَرْوَةَ وَرِثَها عَنْ أبويه ، وهَدَاهُ وَهُوَ حائِرٌ لا يَدْرِي كَيْفَ يُصلحُ قومَهُ واصْطفاهُ مِنْ دونِ قومِهِ رسولاً لَهُمْ وللنّاسِ كافَّةً ..

هٰذِهِ النِّعمُ الجليلةُ دليلٌ على عنايةِ اللهِ ، وعدمِ تخلّيهِ عَنْ محمّدٍ ﷺ ، وتأكيدٌ رابعٌ مِنَ اللهِ لرسولِهِ ، لِكَيْ يُثْبِتَ لَهُ مِنْ جديدٍ أنَّهُ رسولُ اللهِ ، وأنَّ نبوّتَهُ صحيحةٌ ، وأنَّ وساوِسَ الشَّيطانِ لا محَلَّ لها .. وأراكمُ الآنَ تتذكَّرونَ التَّأكيداتِ الثَّلاثةَ السّابقةَ ، وتُضيفونَ عليها التَّأكيدَ الجديدَ (سُورةَ الضُّحى) والتي أوضحت التأييدَ ، وما لم نكنْ نعرفه .

رِسالةٌ شاقَّةٌ

عليك صلىٰ اللهُ يا رسولَ اللهِ ، كَأَنَّ اللهَ يُعْلِمُكَ أَنَّ الوَحْيَ لا بُدَّ نازِلٌ عليكَ ، فلا تَيْأَسْ ، وسَيَنْزِلُ بعدَ هٰذِهِ المَرّةِ أيضاً ، ولكنْ بعدَ أنْ تَستَمْلكَ جأْشَكَ وتستعيدَ قُوَّتَكَ ، فنزولُهُ عليكَ ليسَ بالأمرِ الهيِّنِ ولا بالسَّهْلِ المُتحمَّلِ أوّلَهُ .. وَها هُوَ ذا الوحْيُ اليومَ يَنزلُ مُجدّداً ليبدأَ مرحلةً جديدةً في حياةِ محمّدٍ ﷺ (حياةِ الرِّسالةِ الشّاقّةِ) ، ويقولُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) ﴾ . إنَّها لآياتٌ جديدةٌ تُؤكِّدُ لمحمّدٍ وللمرّةِ الخامسةِ أنّهُ رسولُ اللهِ حقّاً ، وأنّهُ مكلَّفٌ بتبليغِ النّاسِ وإنذارِهِمْ ، فالعبادةُ للهِ وَحْدَهُ ، والكُفْرُ بكلِّ الأوثانِ والشّركاءِ لله مطلوبٌ ، إنّها لرسالةٌ شاقّةٌ ، فاصبرْ يا محمّدُ واحْتَسِبْ .

قِصَصُ
السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ
١٤

المعجمة العظمى

الأَمَلُ المَنْشُودُ

لَقَدْ أَحَطْنا عِلْماً في القِصَّةِ السَّابِقَةِ بِمَخاوِفِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ غِيابِ الْوَحيِ بَعدَ المَرَّةِ الأُولى ، وأَدْرَكْنا أَنَّ هٰذِهِ المخاوِفَ قَدْ وَلَّتْ إلى غيرِ رجْعَةٍ بعدَ نُزولِ سورةِ الضُّحَى التي كانَتْ باعِثَةَ الأَمَلِ في قَلْبِ حبيبِنا محمَّدٍ ﷺ ، حيثُ نَزَلَتْ على نَفْسِهِ بَرْداً وَسَلاماً ، وزرعَتْ فيها مَعانيَ الثَّباتِ والتَّأْييدِ ، وبثَّتْ في جوانِبِها إشْراقَةً حلْوَةً سرَتْ في كيانِ الرَّسولِ الجديدِ ، وزادَتْهُ نَشاطاً وقوَّةً لكَيْ يستَعِدَّ أَكْثَر وأَكْثر ، ويكونَ على دَرجةٍ مِنَ القَبولِ والرِّضا ، وعلى مكانةٍ مِنَ الثِّقةِ والاطْمئنانِ ، وَلَوْ سأَلْتُكمُ الآنَ: لأَيِّ أمرٍ يستعدُّ رسولُنا الكريمُ ؟ وما الشَّيْءُ الذي يَتَطلَّبُ منْهُ القوَّةَ والاسْتعدادَ والتَّحمُّلَ ؟ فكِّروا قليلاً ، ثُم تابعوا القراءَةَ لنتأَكَّدَ مِنَ الجوابِ الصَّحيحِ الذي قَدْ عرَفَهُ أكثرُكم ولا شَكَّ . .

مهَمَّةٌ ثَقِيلَةٌ

إنَّ الرّسولَ يا أحبَّتي يحملُ في لقبِهِ الجديدِ معنى الرِّسالةِ (مِن كلمةِ الرَّسولِ)، وهٰذهِ الرِّسالةُ نعمةٌ كبرى مِنَ اللهِ مُنَزِّلِ الرِّسالاتِ الهاديةِ .

وإنَّ اللهَ قَدِ اصطفى مِنْ عبادِهِ محمَّداً ﷺ ليكونَ صاحبَ رِسالةٍ للبشرِ جميعاً وللنّاسِ كافةً ، ومَنْ يحملُ هٰذهِ الرِّسالةَ لا بُدَّ وأَنْ يتبادَرَ إلى ذهنِهِ فوراً أَنَّ هدايَةَ النّاسِ ستكونُ على يَدَيْهِ ، وسَتأْخذُ منهُ العَمَلَ والجهْدَ .

وستُدْرِكون يا أحبَّائي أَنَّ عَملاً كهٰذا شاقٌّ ومتعِبٌ ، وأَنَّ مَهمَّةً كهٰذِهِ ثقيلةٌ ومجهدَةٌ ، وأَنَّ الوحْيَ قد أَلْقى بأمرِ اللهِ على محمّدٍ ﷺ أثْقَلَ مَهمَّةٍ تُلْقى على بشَرٍ ، وأهابَ بِهِ أَنْ يَقومَ لِيُنْذِرَ النّاسَ ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ، وأَنَّ هٰذا الإِنذارَ لَصَعْبٌ جدّاً في مجتمعِ مكَّةَ وما حَولها .

والآنَ باركَ اللهُ فيكم ، يا مَنْ عرفْتُمُ الجوابَ الصَّحيحَ ، وَلْنُتابِعْ سيرَةَ رَسولِنا الكريمِ صاحبِ الرِّسالةِ العظيمةِ ﷺ .

أَوَّلُ الطَّرِيقِ

والرَّجُلُ الحكيمُ كمحمَّدٍ رسولِنا الكريمِ ، لا بُدَّ وأَنَّهُ سيعرفُ كيْفَ يَبْدأُ . إنَّهُ يُفكِّرُ أَوَّلاً في نقطةِ البدايةِ ، في المكانِ الَّذي يعيشُ فيهِ . . وسيحلِّلُ في أَوَّلِ طريقِهِ كيْفَ يلتفتُ إلى أقربِ النّاسِ إليْهِ ، وهُمْ أسرتُه ثمّ مجتمعُهُ وقومُهُ . . إنَّ محمَّداً ﷺ ـ يا أحبّائي ـ يعيشُ الآنَ في مكَّةَ ، ومكَّةُ فيها قبيلةُ قُريشٍ التي نشأَ الرَّسولُ وترعْرعَ بَيْنَ أفرادِها، وسيفكِّرُ الآنَ في أَمْرِ هٰذِهِ القبيلةِ قَبْلَ غيرِها ، لينطلقَ مَعَها بعْدَ مدّةٍ إلى قبائلَ أُخْرى، والسُّؤالُ الذي يدورُ في ذهنِهِ : كَيْفَ يَدْعُو قُرَيْشاً إلى الحقِّ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهم أَحْرَصُ ما يكونون على باطِلِهِمْ ؟ ما السَّبيلُ لإِقْناعِهِم بِبُطْلِ ما هُمْ عليْهِ ؟ سؤالٌ محيِّرٌ وصعْبٌ ، لا سِيَّما لِمَنْ لَمْ يجرِّبِ الحلَّ قبلَ الآنَ . . لا بدَّ إذاً مِنَ التَّفكيرِ والتَّحليلِ والتَّخطيطِ لجلْبِ قريْشٍ أَوَّلاً لما لها مِنْ مكانةٍ بينَ العربِ أَجْمعين .

لا بُدَّ مِنَ الهَدْمِ

وإنَّ أَوّلَ ما يصنَعُهُ الدّاعي إلى الحقِّ أَنْ يُزيلَ عقائدَ الباطلِ مِنَ النُّفوسِ ، وهٰذا صحيحٌ ، فلا يمكنُ أَنْ نكْتُبَ على ورقةٍ مكتوبةٍ قَبْلَ أَنْ نزيلَ ما عليها مِنَ الكتابةِ أَوّلاً ، أَلَيْسَ كذٰلك ؟ ورسولُنا محمّدٌ ﷺ سَيَقُومُ قبلَ بناءِ الحقِّ ، بهدْمِ ما ترسَّبَ مِنْ ضَلالاتٍ في النُّفوسِ ، إذاً لا بُدَّ مِنَ الهدْمِ.

ولو سألْتكم ماذا سيهدِمُ في نفوسِ قريْشٍ؟ لعرفتُمْ سريعاً أَنَّ الهدْمَ لا بدَّ وأنَّهُ سيشْمَلُ الكُفْرَ باللهِ والإشْراكَ بِهِ .

ثُمَّ ماذا سَيَزْرَعُ في النُّفوسِ بعدَ ذٰلكَ؟ والجوابُ : إنَّ مُحمّداً ﷺ سيركِّزُ على الاعتقادِ بأَنْ لا إلهَ إلا اللهُ الذي خلقَنا ، ويسْمَعُ دُعاءَنا ، وبيدِهِ ضَرُّنا وَنَفْعُنا ، ولَهُ وحدَهُ يجبُ أَنْ نمتثلَ ونسْمَعَ .. ثم ينبِّهُهُمْ بأَنَّ كُلَّ فردٍ مِنَ النّاسِ مسْؤولٌ عنْ هذا في الحياةِ الأخرى غداً يَوْمَ القِيامَةِ ..

هَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ ؟

إنَّ عمليّةَ الهدْمِ والبناءِ في دعوةِ محمّدٍ ﷺ قدْ وَضَحَتْ معالمُها ، وتبيّنَ لَنا جوابُ السُّؤالَيْن: ماذا سَيَهْدِمُ ؟ وماذا سيَبْني ؟ ولكنَّ هناكَ سؤالاً ثالثاً يجْعَلُنا نقفُ قليلاً : هَلْ يمْكِنُ لقريْشٍ أَنْ تقْتَنِعَ بما سيعْرِضُهُ عليها واحِدٌ مِنْ أَفرادِها ؟ هَلْ لهُمْ أَنْ يتجاوبُوا مع محمّدٍ ﷺ ويُدْركوا

مَعَهُ بأَنَّ آلهتَهُمْ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ، ولا تبْصِرُ ولا تسْمَعُ ؟ قَدْ يدْركُون هٰذا ، ولٰكنَّهم لَنْ يَتخلّوا عَنْ عبادةِ أَصْنامِهم وأوثانِهم بسهولةٍ ، فَبقاؤُها يُدرُّ عليهمُ الأرْباحَ والأمْوالَ في مواسِمِ الحجِّ ، ولَنْ يتْركوا ماكان يعبدُه الآباءُ والأجْدادُ وتقليدَهم وخدمةَ الأصْنامِ ، لأنَّ العربَ يعترفونَ لقريْشٍ بالفضْلِ والسِّيادةِ عليهِمْ نظَراً لهٰذهِ الخدْمَةِ ، ثُمَّ إنَّ قُريْشاً لَنْ تُؤْمِنَ بيوم حسابٍ أَوْ مسؤوليّةٍ أَو حياةٍ أخرى ،خشْيَةَ أَنْ يتركوا كلَّ شهواتِ الدُّنيا وملذّاتِها وأَنْ يهجروا لَهْوَهم ولعبَهُمْ .

حَقّاً إنَّها لَصَعْبَةٌ

لقَدْ فكّرَ محمّدٌ ﷺ في هذا ، وتساءَلَ كثيراً فيما إذا كانَ في الإمكانِ أَنْ يُقْنِعَ قريْشاً بمبادئِ الحقِّ السّاميةِ ؟ وأنْ يوصِلَ إليهمْ هٰذهِ المعانيَ الكبيرةَ .. !! ؟ إنَّ قُرَيْشاً عقبتُهُ الأولى ، وحلقتُهُ المهمّةُ في دعوتِه ، إنَّ في إيمانِ أَهْلِ مكّةَ تَسْهيلاً لإيمانِ العربِ كلِّهم ، فإذا ما استطاعَ محمّدٌ ﷺ أَنْ يُحَطِّمَ هٰذهِ العقبَةَ ، ويفكَّ هٰذهِ العقْدَةَ، وانفتحَتْ أمامَهُ الطّريقُ .. إذاً لَسَهُلَ لَهُ السَّيْرُ في المهمّةِ العُظْمى..

فكَيْفَ ياربُّ ؟ كيفَ سَيُقْنِعُهُم ؟ اللهمَّ أعنْهُ ومُدَّهُ بالعونِ من عندكَ، فإنَّ مَهَمَّتَهُ لَصعبةٌ ، وإنَّ معضلتَهُ لَعسيرةٌ ، وإنّها لتحتاجُ يا ربُّ إلى مَدَدٍ مِنْ قوّتِكَ وفَيْضٍ مِنْ عَوْنِكَ الإلهيِّ ، وعلى كُلٍّ فالأمْرُ مِنَ اللهِ ، وما على الرّسولِ محمّدٍ ﷺ إلا النُّهوضُ والعزْمُ والتّوكُّلُ على اللهِ الذي

يعرفُ ما سيُلاقيهِ رسولُهُ حَتْماً .

قُلوبٌ ونفوسٌ

وجعلَ ﷺ يفكِّرُ منْ جديدٍ ، ويقلِّبُ الأمْرَ على وُجُوهِهِ ، ليَجِدَ مُدْخَلاً سَهْلاً يَدْخُلُ مِنْهُ إلى قلوبِ ونفوسِ قومِهِ ، وأَدْرَكَ صُعُوبَةَ هٰذا العملِ أمامَ قلوبٍ جامدةٍ على تقاليدِها ونفوسٍ ضائعةٍ في ضَلالاتها .

ولا بدَّ لتفكيرِ رسولِنا محمّدٍ ﷺ مِنْ نتيجةٍ .. ها هُوَ ذا قَدْ هَداهُ اللهُ إلى أَنَّ مجتمعَ قريْشٍ لا يَخْلو منْ قلوبٍ ليِّنةٍ ، ونفوسٍ مستعدَّةٍ للهِدايَةِ وَقَبولِ الحقِّ ، وحتّى لو كانَ هٰؤُلاءِ قليلي العَدَدِ ، إلا أنّهم لا بُدَّ سَيُسَهِّلُون دَوْرَ الرَّسُولِ ، وسَيُساعدونَه بلا شكٍّ في مَهَمَّتِهِ الثّقيلةِ ، وفي التّخفيفِ مِنْ ثِقَلِ المبادئِ السّاميةِ على العُقولِ في قُرَيْشٍ ، ولهٰذا راحَ الرَّسُولُ يلتمِسُ قبولاً عندَ معارِفِهِ وصَحْبِهِ ممَّنْ يَثِقُ بهِمْ ، ويطمئنُّ إليهمْ ، وأَخَذَ يَدْعوهم إلى الإِسْلامِ ويحبِّبُ إليهم دينَ الحقِّ والصَّوابِ ليُسْلِموا إليه فاهمينَ مُخْلِصين .

خَديجَةُ مِنَ النِّساءِ

وحَقّاً ، لقدِ اسْتطاعَ أَنْ يجدَ قِلَّةً مِنَ النّاسِ كانوا كالبذورِ الطَّيِّبَةِ الصّالحَةِ لِلْعَطاءِ والنُّمُوِّ ، وَجَدَ عندهمُ القبولَ الحَسَنَ والهدايَةَ الجيِّدَةَ .

ها هيَ ذي خديجةُ أَوّلُ مَنْ آمنَتْ بِهِ وَبِرسالتِهِ ، وَصدَّقَتْ بما جاءَهُ مِنَ

اللهِ ، وأخذَتْ تُساعِدُهُ على أمرِهِ ، فكانَتْ لَهُ نِعمَ المعينُ تُثَبِّتُه وتقوِّي مِنْ عزيمتِهِ ، وتخفِّفُ عَنْهُ كُلَّ ما يلمُّ بِهِ مِنْ همٍّ ، وتهوِّنُ عليه أَمْرَ النّاسِ، وتسهِّلُ لَهُ طريقَ هدايتِهِمْ ، ففرَّجَ اللهُ بها عَنْهُ ، وشَدَّ مِنْ أَزْرِهِ .

ولقد رَأَيْنا مِنْ قَبْلُ أَنَّها كانتْ له نِعْمَ النَّصيرُ في إبعادِ المخاوفِ وطَرْدِ الوساوسِ، ولا بأْسَ أَنْ نتذكَّرَ جملتَها الحلوةَ : (واللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أبداً ، وإنّي لأَرْجو أَنْ تكونَ نبيَّ هٰذِهِ الأمّةِ) ، فإنَّ مَنْ تقولُ هٰذِهِ الكلماتِ لا بُدَّ وأنها ستكونُ أَوّلَ مَنْ سيؤمنُ بِهِ ، ويصدِّقُ برسالتِهِ ، ولا عَجَبَ إنْ كانَتْ سبباً في إيمانِ بناتِها (زينبَ ، ورقيّةَ ، وأمِّ كلثومٍ ، وفاطمةَ) .

وَعَلِيٌّ مِنَ الصِّغارِ

ودِينُ محمّدٍ ﷺ سيدخلُ السُّرورَ إلى قلوبِ براعمِ القومِ ، فهوَ دينُ الفطرة ، ولم تَزِغْ أبصارُهُم كآبائِهِم وأجدادِهِم ، وفي بيتِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ كان يعيشُ أحدُ الصِّغارِ مِنْ أقارِبِهِ ، إنّهُ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ، عُمرُهُ أقلُّ مِنَ العاشرةِ ، ورأى مِنْ أَخلاقِ رسولِ اللهِ الكثيرَ ، ممّا زادَ في حبِّهِ لَهُ ، وقد عاشَ عليٌّ عندَ الرّسولِ منْ صغرِهِ حَيْثُ أَخَذَهُ نبيُّنا محمّدٌ ﷺ مِنْ بيتِ والدِهِ ليخفِّفَ عَنْ عمِّهِ أبي طالبٍ عمِّهِ نفقةَ العيالِ ، وهٰذا أقلُّ الشُّكْرِ ...

وعليٌّ اليومَ يرى الرَّسولَ يُصلِّي مع خديجةَ ، فيوقفَ ينظرُ إليهما ،

وسرْعانَ ما سألَها بعد فراغِهما مِنَ الصّلاة . ولمّا عَرفَ الجوابَ باتَ لَيْلَتَهُ تلكَ يفكِّرُ في هٰذا الأمرِ ، وأصْبَحَ غادياً علَى رسولِ اللهِ ﷺ يقولُ : إني لأَشْهَدُ كما كُنْتَ تقولُ وتفْعَلُ ، وسَأَفعَلُ ما عرضْتَه عَليَّ ، وإنَّكَ لرسولُ اللهِ ، إنَّني لثالِثُ المسْلِمين . (أيْ : بَعْدَ الرّسولِ ﷺ وزوجتِهِ).

دِينُ اللهِ يا عَمِّ

وحَدَثَ أَنْ خَبِرَ العَمُّ بذٰلك ، وعَلِمَ أنَّ محمّداً وعليّاً يقومانِ بحركاتٍ وصلواتٍ ما عرَفَها مِنْ قَبْلُ ، وها هُوَ ذا يَسْأَلُ ابْنَ أخيه محمّداً : (يابْنَ أخي ، ما هٰذا الذي أراكَ تَدينُ بِهِ ؟) وبسرور قالَ الرّسولُ : (يا عَمُّ : هٰذا دينُ اللهِ ودينُ ملائكتِهِ ودينُ رسلِهِ ، ودينُ أبينا إبراهيمَ ، بَعَثَني اللهُ بِهِ رسولاً إلى العبادِ ، وأنْتَ يا عَمُّ أحَقُّ مَنْ بَذَلْتُ لَهُ النَّصيحةَ ، ودَعَوْتُه إلى الهُدى ، وأحَقُّ مَنْ أجابَني إليهِ ، وأعانَني عليه) . فقالَ أبو طالِبٍ : (يا بْنَ أخي .. إنِّي لا أَسْتطيعُ أنْ أفارِقَ دينَ آبائي وما كانوا عليه ، وإنَّكَ لَنْ تُؤْذى مِنْ قَوْمِك ما بقيتُ حَيّاً) . ثُمَّ قالَ لابْنِهِ عليٍّ : (يا بُنَيَّ إنّهُ لَمْ يَدْعُكَ إلا إلى خَيْرٍ ، فالْزَمْهُ) . وستقولون جميعُكم: إنَّ أبا طالبٍ قَدْ عَرَفَ أنَّ الرّسولَ ﷺ وابْنَهُ على حقٍّ ، لٰكنَّهُ لمْ يُؤمنْ ، ولَمْ يَدْخلْ في دينِ الإسلامِ . وقولُكمْ هٰذا صَحيحٌ .

وَزَيْدٌ مِن الغِلْمانِ

ولو آمنَ العَمُّ أبو طالبٍ لَكانَ في ذٰلكَ خَيْرٌ كبيرٌ لِما لهٰذا العمِّ مِنْ مكانةٍ في قومِهِ، ولٰكنَّ اللهَ سيعوِّضُ عَنْ إيمانِه بإيمانِ ابنِهِ عليٍّ الذي حَسُنَ إسْلامُهُ ، وتوثَّقَتْ صلتُهُ برسولِ اللهِ . وكما آمَنَ عليٌّ مِنَ الصّغارِ الأقاربِ فإنَّ هُناكَ فتىً مِن غَيْرِ الأقاربِ عاشَ أيضاً مَعَ عليٍّ عنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ يخدُمُهُ ، ويخدمُ خديجةَ .. إنّهُ (زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ) ، وقد عَرفَ زيدٌ مِنْ مكارمِ الرّسولِ وأخلاقِهِ الكثيرَ الكثيرَ مِمّا حبَّبَ إلَيْهِ أنْ يصدِّقَهُ بدعْوتِهِ الإسْلاميّةِ الحَقَّةِ .. وحقّاً : لقدْ زادَ عددُ المسْلمينَ واحداً .. لَقَدْ زادَ بزَيْدٍ ، وفي زيدٍ من الخيرِ والبركةِ لزيادةٌ ، وأنتُمُ الآنَ ألم تزِدْ محبتُكم لفتيانِ المؤمنين مِثلِ عَليٍّ وزيدٍ ؟ إنَّهما ليُحِبّانِ أنْ نُسْلِمَ مِثْلَهما ، وأنْ نقولَ : (اللّهُمَّ اقْبَلْنا مَعَ هٰذينِ الصَّغيرَيْنِ ، مِنَ المؤمنينَ الصّادقينَ ، لا إلهَ إلا أنْتَ ، أنْتَ ربُّنا ، ومحمّدٌ رسولُكَ ورسولُنا) .

وأَبُو بكرٍ مِنَ الرِّجالِ

وإليكمْ رَجُلاً .. كانَ يحبُّ رسولَ اللهِ ﷺ قبلَ البعثةِ ، وأخلاقُهُ قريبةٌ منْهُ ، ويحبُّهُ النّاسُ ، ويحبُّهم .. لعلَّكم سمعتُمْ باسْمِه ، إنّهُ (أبو بكرٍ) ، وهُوَ عالمٌ بأنسابِ قريشٍ وأيّامِها المشْهورةِ، ومُلِمٌّ بحوادثِ الدّهرِ وأخبارِ النّاسِ . وزيادةً على هٰذا فقدْ كانَ تاجراً زادتْهُ السِّياحةُ

والتِّجارةُ خبرةً وعِلْماً ، وإنَّـهُ لَيحبُّ رسولَ الله حُبّاً شديداً ، ويثـقُ بِهِ، ويَصْدُقُ لَهُ المحبَّـةَ والصُّحبَة . وما كادَ محمَّدٌ ﷺ يعـرضُ عليهِ الإِسْلامَ حَتّى أَسْلَـمَ باطْمئنانٍ وثِقَـةٍ ، وهٰذا ما جَعَلَهُ يَنْـزِلُ من نَفْسِ الـرّسولِ مَنْزِلَـةَ الحبيبِ الصَّديـق ، بَلْ وأكثرَ .. إنَّـهُ الحبيبُ الصَّاحِـبُ ، وكانَ إيمانُهُ يَعْدِلُ إيمانَ أُمَّةٍ بأكملِها ، ففيهِ كُلُّ الخيْرِ ، ولهُ الكثيرُ مِنَ المعارفِ والأَصْدِقاءِ ، وسرْعانَ ما تدركُـون السِّرَّ في هٰذا ، فالذي يعرفُ الكثيرَ لا بُدَّ وأنَّهُ سيجلبُ منهم الكثيرَ إلى دائرةِ الإِسْلامِ ..

الصَّحْبُ الأَوائِلُ

اقْرؤوا معي : (عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ ، والزُّبَيْرُ بْنُ العَوّام ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ ، وسَعْدُ بنُ أبي وَقّاصٍ ، وطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ) أَعيدُوها مرَّةً ثانيةً وثالثـةً ، ثم اعْلَمُـوا أَنَّها مِنْ قائِمَةِ أبي بكرٍ الذي لَمْ يَتَـأَخَّرْ عَـنْ دَعْوَةِ أصدقائِهِ وأحبّائِهِ إلى الإِسْلامِ (بَعْدَ أنْ آمَنَ هُو بمحمّدٍ ﷺ) ، وهٰؤلاءِ الخمسةُ ممَّنْ أَسْلَمَ وَصَدَّقَ باللهِ ورسولِهِ على يدِ الرّجلِ المؤمنِ . لذٰلكَ لا بـأسَ أن نسمّيَهم بـالأوائِلِ ، لأنَّهُمْ وَصَلُـوا قبلَ غيرِهـم إلى ديـنِ الصَّـوابِ ، واقْتَنعـوا دُونَ جِدالٍ عقيـمٍ ، أَوْ مُجادَلـةٍ بغيضـةٍ . لقـدِ اسْتَخْدمُـوا عُقُولَهم ، وسرعانَ مـا اهْتَدَوْا بتفكيرِهِـم ، وقَدْ أصبحَ لـدينا

أَرْبَعَةَ عَشَرَ اسْماً (١) ، أوّلُهم محمَّدٌ القـائدُ الرَّسُولُ ﷺ . اللّهـمَّ باركْ لَهُمْ إيمانَهُمْ ، واجْعَلْنا دَوْماً مِنَ الأَوائِلِ في الحقِّ ، إنّنا مِنَ المُسْلِمين ..

صَرْحٌ شامِخٌ

• ولَنْ يَخْفى علينا يا أحبَّتي ما للسّابِقينَ مِنْ أَثرٍ كبيرٍ في تشْييـدِ البناءِ الشّاهِقِ الّذي كُلِّفَ به محمّدٌ ﷺ . لَقَدْ كانُوا لَهُ اللَّبِناتِ الأُولى في بنائِهِ، وقدَّمـوا ما يَسْتَطيعـونَهُ مِـنْ بَذْلٍ وتَضْحيَـةٍ ليقومَ الصَّرْحُ الشّـامخ على أيديهم ، وليـؤسِّسوا بأنفسِهِم الـدَّعائِمَ المَتينَةَ لهٰذا الصَّرْحِ ، حتّـى يَتِمَّ بناؤُهُ ...

إنَّ كُـلَّ واحدٍ منهـم لَيَعْدِلُ أَلْفاً بإيمانِهِم ، ولَقَـدْ أحبَّهُـمُ الرَّسولُ وأحبُّوهُ، وصـاحَبَهُمْ وصاحَبُوهُ . فيهِم الصَّغيرُ وفيهِـمُ الكبيرُ ، وبينهمُ الغنيُّ والفقيرُ ، والعـاقِلُ والحَكيمُ ، وعلى رأسِهِمْ رسُولٌ لا ينطِـقُ عَنِ الهوى ، ينزِلُ عليْهِ الوحْيُ ، ويصِلُهُ وإيّاهُم بربِّ السَّماءِ ، لِيبقى الجميعُ في ثقةٍ وطُمأنينةٍ مَعَ رَبِّهِم .. أراكم في نهايةِ القصَّةِ سَتُعاهِدون ربَّنا على أَنْ نكونَ دَعائِمَ صَرْحٍ لِدينِهِ القَويمِ .

---

(١) محمّد ﷺ خديجة ـ زينب ـ رقية ـ أمّ كلثوم ـ فاطمة ـ عليّ ـ زيد ـ أبو بكر ـ عثمان ـ الزّبير ـ عبد الرّحمٰن ـ سعد ـ طلحة ـ رضي الله عنهم أجمعين .